# □ كيفَ تعلُو الهِمَمُ ؟؟ □

ولعُلوِّ الهمَّة ورُقيِّها أسبابٌ .. نذكر منها :

**الأول : الإخلاص :**

قال ابن القيـم في «الفوائد» (صـ ٢٦١) : لِقاحُ الهِمَّة العالية: النيَّـةُ الصحيحة ، فإذا اجتمعا بلغ العبدُ غاية المراد .

ونسيان رؤية المخلوقين بدوام النظر إلى الخالق يَحُثُّ على الأخذ بمعالي الأمور ، لأن الناقد بصيرٌ . والفقه كلُّ الفقه هو الفقه في مذاهب الإخلاص وتصفية العمل من شوائبه .

**الثاني : الصدق :**

قال ابن القيم في «الفوائد» (صـ ٢٤٤-٢٤٥) : « ليس للعبد شيء أنفع من صِدْقِهِ ربَّه في جميع أموره مع صدق العزيمة ، فيصدق في عزمه وفي فعله ؛ قال تعالى : ﴿ **فإذا عزَمَ الأمرُ فلو صدقوا الله لَكَانَ خيرًا لهم** ﴾[ محمد : ٢٢] ، فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعْل ؛ فصدقُ العزيمة : جمعُها وجزْمُها وعدم التردُّدِ فيها بل تكون عزيمة لا يَشوبها تردُّد ولا تلوُّم، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعْل ؛ وهو استفراغ الوُسْع وبذْلُ الجهد فيه ، وألا يتخلَّف عنه بشيء من ظاهره وباطنه ، فعزيمة الصدق تمنعه من ضعْف الإرادة والهمة ، وصِدْق الفعْل يمنعه من الكسَل والفتور . ومَن صدَق الله في جميع أموره ، صَنَع الله له فوق ما يصنع لغيره ، وهذا الصدق معنى يلتئم من صحَّة الإخلاص وصدْق التوكُّل ، فأصدق الناس مَن صحَّ إخلاصُه وتوكُّله » .

**الثالث : البصيرة :**

قال ابن القيم في «الفوائد» (٢٦٠-٢٦١): « العزيمة لِقاح البصيرة ، فإذا

اجتمعا نال صاحبهما خير الدنيا والآخرة ، وبلغت به همَّته من العلياء كل مكان . فتخلُّف الكمالات ؛ إما من عدم البصيرة ، وإما من عدم العزيمة .

والصبر لِقاح البصيرة، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما. قال الحسن: «إذا شئت أن ترى بصيرًا لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابرًا لا بصيرة له رأيته ، فإذا رأيت صابرًا بصيرًا فذاك» .

والبصيرة نور في القلب يُبصر به الوعْد والوعيد والجنة والنار ، وما أعدَّ الله في هذه لأوليائه ، وفي هذه لأعدائه ، فينفتح في قلبه عينٌ يرى بها ذلك ، ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها .

فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب ، يرى به حقيقة ما أخبرتْ به الرسل ، كأنه يشاهده رأْي عينٍ ، فيتحقَّق مع ذلك انتفاعُه بما دعت إليه الرسل ، وتضرُّره بمخالفتهم .

والبصيرة على ثلاث درجات ، من استكملها فقد استكمل البصيرة ؛ بصيرة في الأسماء ، وبصيرة في الأمر والنهي ، وبصيرة في الوعد والوعيد :

**فالبصيرة في الأسماء والصفات** : أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ، ووصَفه به رسوله ، بل تكون الشُّبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشُّبه والشكوك في وجود الله ، فكلاهما سواء في البلاء عند أهل البصائر .

وتفاوت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهْمها، والعلم بفساد الشُّبه المخالفة لحقائقها .

**والمرتبة الثانية : البصيرة في الأمر والنهي** : وهي تجريده عن المعارضة بتأويل أو تقليد أو هوى ؛ فلا يقوم بقلبه شبهة تعارِض العلم بأمر الله ونهيه ، ولا شهوة تمنع تنفيذه وامتثاله والأخذ به ، ولا تقليد يُريحه عن بذْل الجهد في تلقِّي الأحكام من مشكاة النصوص .

**والمرتبة الثالثة : البصيرة في الوعْد والوعيد** : ومن البصيرة أنك تستدلُّ

بتوفيقه لك ، وجَذْبك نفسَك ، وجَعْلِك متمسِّكًا بحبله - على تقريبه لك ، تشاهد ذلك ليكون أقوى في المحبة والشكر ، وبذْل النصيحة في العبوديَّة . وهذا كله من تمام البصيرة . فمن لا بصيرة له فهو بمعْزِلٍ عن هذا .

والبصيرة تفجِّر ينابيع المعارف من القلب . وبالبصيرة يُميِّز العبد بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب . وفراسة الصادقين العارفين بالله وأمره وبصيرتهم متصلة بالله ، متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان ، تميِّز بين ما يحبه الله وما يُبغضه من الأعيان والأقوال والأعمال ، وتميِّز بين الخبيث والطيِّب ، والمحِقِّ والمُبْطل ، والصادق والكاذب ، ويعرف بها مقادير استعداد السالكين إلى الله ، فحملت كل إنسان على قدر استعداده ، علمًا وإرادة وعملًا .

ففراسة الصادقين وبصيرتهم دائمًا حائمة حول كشْف طريق الرسول وتعرُّفها وتخليصها من بين سائر الطرق ، وبين كشف عيوب النفس ، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين. فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة، وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده »[١] .

**الرابع : العلم :**

فمَن استوى عنده العلم والجهل ، أو كان قانعًا بحاله وما هو عليه ؛ فكيف تكون له همَّة أصلًا فالعلم يرتقي بالهمَّة ، ويرفع طالبه عن حضيض التقليد ، ويُصفِّي النية .

قال ابن حجر رحمه الله يصف حال الإمام جلال الدين البلقيني : «ما رأيت أحدًا ممَّن لقيته أحرصَ على تحصيل الفائدة منه ، بحيث إنه إذا طَرق سمْعَه شيء لم يكن يعرفه؛ لا يَقرُّ ولا يهدأ ولا ينام حتى يقف عليه ويحفظه، وهو على هذا مكِبٌّ على الاشتغال ، محبٌّ في العلم حقَّ المحبة »[٢] .

---

(١) مدارج السالكين ١/١٢٣- ١٣١ .

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٤/١٠٩، للحافظ السخاوي .

« والعلم يُورث صاحبه الفقه بمراتب الأعمال ، فيتقي فضول المباحات التي تشغله عن التعبُّد ، كفضول الأكل والنوم والكلام ، ويراعي التوازن والوسطية بين الحقوق والواجبات ؛ امتثالًا لقوله ﷺ : « أعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه » ، ويبصِّره بحيل إبليس وتلبيسه عليه ، كي يحول بينه وبين ما هو أعظم ثوابًا . قال أبو سليمان : يجيئك - أي إبليس - وأنت في شيء من الخير ، فيشير لك إلى شيء من الخير دونه ليربح عليك شعيرة »[1] .

قال ابن القيم : « إن السالِك على حسب علْمِه بمراتب الأعمال ونفائس الكَسْب ؛ تكون معرفته بالزيادة والنقصان في حاله وإيمانه » .

**الخامس : اليقظة :**

قال ابن القيم رحمه الله : هي انزعاج القلب لروْعة الانتباه من رقْدة الغافلين . ولله ما أنفع هذه الرَّوْعة !! وما أعظم قدرها وخطرها !! وما أشدَّ إعانتها على السلوك !! فمن أحسَّ بها فقد أحسَّ - والله - بالفلاح ، وإلا فهو في سكراتِ الغفْلة ، فإذا تنبَّه شمَّر لله بهمَّته إلى السفر إلى منازله الأولى ، وأوطانه التي سُبي منها :

فحيَّ على جناتِ عدنٍ فإنها ... منازلُكَ الأولى وفيها المخيَّمُ
ولكنَّنا سَبْيُ العدوِّ فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونُسَلِّمُ ؟[2]

قال شيخ الإسلام الهروي : « هي القومة لله المذكورة في قوله : ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى** ﴾ » . وقال : « القومة لله هي اليقظة من سِنَة الغفلة والنهوض من ورطة الفترة ، وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه . وهي على ثلاثة أشياء :

لحظ القلب إلى النعمة : على اليأس من عدِّها ، والوقوف على

(١) علوُّ الهمة ، للشيخ محمد إسماعيل صـ ٣٤٤ .
(٢) مدارج السالكين ١/١٢٣ .

حدِّها ، والتفرُّغ إلى معرفة المنَّة بها ، والعلم بالتقصير في حقِّها » .

« والثاني : مطالعة الجناية ، والوقوف على الخطر فيها ، والتشمير لتداركها ، والتخلُّص من رِقِّها ، وطلب النجاة بتمحيصها .

والثالث[١]: الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام ، والتنصُّل من تضييعها والنظر إلى الظنِّ بها لتدارك فائتها ، وتعمير باقيها » .

**أخي :**

لا يكون المؤمن العامر القلب إلَّا متحرِّكًا مُحرِّكًا ، أمَّا المتباطئ الذي يَعِدُ بالالتحاق بعدما تظهرُ بوادر النجاح ، فإنما يعدُ وعْد الضِّعاف .

صاحِ ما الحرُّ من يثورُ على الظلْـ ـمِ وقدْ ثارتْ لحقِّها الأقوامُ
إنما الحرُّ من يسيرُ إلى الظلْـ ـمِ فيصميهِ والأنام نِيامُ

فلا تؤجل الانضواءَ تحت لواءِ الحقِّ ، وإلَّا عضضتَ أسِنَّة الندم .

دعا رسول الله ﷺ « ذا الجوشن الضبابي » بعد « بدر » ، فقال له : « هل لك إلى أن تكون من أوائل هذا الأمر ؟ » قال : لا . قال : « فما يمنعُك منه ؟» قال: رأيتُ قومك كذَّبوك وأخرجوك وقاتلوك، فأنظر : فإن ظهرت عليهم آمنت بكَ واتَّبعْتُك ، وإن ظهروا عليك لم أتبعك .. فكان ذو الجوشن يتوجَّع على ترْكه الإسلام حين دعاه إليه رسول الله ﷺ[٢] .

إذا ما علا المرءُ رام العلا ويقنع بالدُّونِ مَن كان دونا

**السادس : خروجه عن المألوفات والعادات :**

وتوطين النفْس على مفارقتها ، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض ، وما على العبد أضرُّ من ملْك العادات له . وما عارض الكفَّار الرسل إلا بالعادات المستقرّة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين ، فمن لم يوطِّن نفسه على مفارقتها

(١) يعني من مراتب اليقظة .
(٢) المنطلق صـ ١٩١ .

والخروج عنها والاستعداد للمطلوب منه ، فهو مقطوع ، وعن فلاحه وفوزه ممنوع : ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدَّةً ولكن كره الله انبعاثهم فثبَّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾[(١)] .

**السابع : التفكُّر :**

قال ابن القيم : « إذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة ، وهو تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماسًا له » .

قال الهروي : « وهي ثلاثة أنواع : فكرة في عين التوحيد ، وفكرة في لطائف الصنعة ، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال » .

قال ابن القيم : « الفكرة فكرتان : فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة ، وفكرة تتعلَّق بالطلب والإرادة . فالتي تتعلَّق بالعلم والمعرفة : فكرة التمييز بين الحقِّ والباطل ، والثابت والمنفي . والتي تتعلق بالطلب والإرادة : هي الفكرة التي تميِّز بين النافع والضار . ثم يترتب عليها فكرة أخرى في الطريق إلى حصول ما ينفع فيسلكها ، والطريق إلى ما يضرّ فيتركها .

فهـذه ستة أقسام لا سابع لها ، هي مجال أفكار العقلاء »[(٢)] .

« عن سالم بن أبي الجعْد قال : سألت أمَّ الدرداء رضي الله عنهما : ما كان أفضل عمَل أبي الدرداء ؟ فقالت : التفكُّر .

قال الحسن : التفكُّر مرآةٌ تُريك حسناتك وسيئاتك .

وقال أبو جعفر الأدمي: كان يُقال : الهمُّ بالعمل يُورث الفكرة ، والفكرةُ تُورث العِبْرة ، والعِبرة تورث الحزْم ، والحزم يُورث العزْم ، والعـزم يُـورث اليقين ، واليقين يُورث الغِنىٰ، والغنى يُورث الشكر ، والشكر يُورث المزيد ،

---

(١) مدارج السالكين ١ / ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) مدارج السالكين ١ / ١٤٦ .

والمزيد يورث الجنة .

وقال عبد الرحمن بن زيد : ما رأس هذا الدين وصلاحه إلا التفكُّر ؛ تتفكر فتنظر أنه أخذ منك قليلًا من العمل ، ورضي به لنفسه ، وهو الربُّ تبارك وتعالى !! فأنت العبد .. ما كلَّفك من ثنتيْن ، ما كلّفك قدر حقِّه فلا تطيقُه ، وما كلّفك ما لا تستطيع فقال : اعملْ على قدْر حقِّي .. فأعطاك الثواب على قدْر كرمه وتوسُّعه ، وقَبِلَ منك العمل على ضعْف ابن آدم !!

وقال أحمد بن أبي الحواري:سمعتُ أبا سليمان يقول: إنما يُعاينون[1]إذا تفكَّروا .

قال أحمد بن أبي الحواري : قلتُ لأبي صفوان – عبد الله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان –: أيما أحبُّ إليك : يجوع الرجل فيجلس يتفكر ، أو يأكل فيقوم فيصلِّي ؟ قال : يأكل ويقوم ويتفكَّر في صلاته أحبُّ إليَّ ، فحدّثتُ به أبا سليمان فقال : صدق ؛ الفكرة في الصلاة أفضل من الفكرة في غير صلاة ؛ لأن الفكرة في الصلاة عملان ، وعملان أفضل من عمل .

قال وهب بن منبه : المؤمن مفكِّر مُذَّكر مُزدَجِر، تفكَّر فَعَلَتْه السكينة، فسَكَن فتواضع ؛ قنع فلم يهتمَّ، رفض الشهوات فصار حرًّا ، ألقى الحسدَ فصارت له المحبَّة ، زهِد في كل فانٍ فاستكمل العقل ، فقلبه متعلّق بهمِّه ، وهمُّه موكَّل بمعاده ، لا يفرح إذا فرح أهل الدنيا ، بل حزنه سَرْمد ، فهو دهرَه محزون ، وفرحُه إذا نامتِ العيون ، يتلو كتاب الله تعالى يردِّده على قلبه ، فمرةً يَفزع قلبُه ، ومرَّة تهمل عيناه ، يقطع عنه الليل بالتلاوة ، ويقطع عنه النهار بالخلوة مفكِّرًا في ذنوبه ، مستصغرًا لأعماله . قال وهب : هذا يُنادىٰ يومَ القيامة في ذلك الجمْع العظيم على رؤوس الخلائق : قمْ أيُّها الكريم ، فادخلِ الجنَّة .

---

(١) أي يَصلون إلى مرتبة الإحسان ، كأنهم يؤمنون بعد مشاهدتهم الله ومعاينته .

وقال الحسن : أوصيكم بتقوىٰ الله وإدمان الفِكْر ، فإن الفكر أبو كُلِّ برٍّ وأمُّه ، مَفتح خِلالِ الخير كلّه ، وبه يَحضر تسديدُ الله عز وجل كلَّ موفَّق .

وقال لسفيان بن عيينة : التفكُّر مفتاح الرحمة ، ألا ترى أنه يتفكَّر فيتوب ؟!

قال الفُضيْل : كلام المؤمن حِكَم ، وصَمْته تفكُّر ، ونَظره عِبرة . إذا كنتَ كذلك لم تزل في العبادة .. ثم قرأ: ﴿ **وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [ الذاريات : ٥٦ ] .

وقال خليفة العبدي – وكان متعبِّدًا –: لو أن الله تبارك وتعالى لم يُعبد إلَّا عن رؤيةٍ ؛ ما عبده أحد ، ولكن المؤمنون تفكَّروا في مجيء هذا الليل إذا جاء ، فملأ كلَّ شيء وغطَّى كل شيء ، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء ، فمحا سلطان الليل ، وفي السحاب المسخَّر بين السماء والأرض ، وفي النجوم ، وفي الشتاء والصيف ؛ فوالله ما زال المؤمنون يتفكَّرون فيما خَلَق ربُّهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربِّهم عز وجل ، وحتى كأنما عبدوا الله تبارك وتعالى عن رؤية .

وقال كعبُ الأحبار : من أراد أن يبلغ شرف الآخرة فلْيُكْثِرِ التفكُّرَ ، يكنْ عالمًا .

وقال وهب بن منبّه : ما طالت فكرةُ امرئ قطُّ إلّا فهِم ، وما فهم امرؤٌ قطُّ إلا عَلِم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل »(١) .

**الثامن : الاجتهاد في حَصْر الذهْن ، وتركيز الفِكر في مَعالي الأمور :**

قال الحسن البصري : « نفسك إن لم تشغلها بالحقِّ شغلتْك بالباطل » .

«قال « وليم مولتون مارستن » المتخصص في علم النفس : « والعقل

(١) انظر كتاب : العظمة ، لأبي الشيخ الأصبهاني . تحقيق : رضا الله بن محمد المباركفوري صـ ٢٢١ – ٣١٢ ، دار العاصمة . الرياض .

الإنساني يصبح أداة مُدهِشة الكفاءة إذا رُكِّز تركيزًا قويًّا حادًّا » .

ونُقل عن « وليم جيمس » - وهو أبو علم النفْس الحديث - أنه قال : « إن الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس العاديِّين ليس مرجعه إلى صفة أو موهبة فطرية للعقل، بل إلى الموضوعات والغايات التي يوجِّهون إليها هممهم، وإلى درجة التركيز التي يسعُهم أن يبلغوها » .

ثم يقول « وليم مولتون » : وهذه القدرة تُكتسب بالمرانة ، والمرانة تتطلب الصبر ؛ فإن الانتقال من الشرود إلى حصْر الذهن حصْرًا بيِّنًا محكَمًا - هو ثمرة الجهد المُلِحّ ، فإنِ استطعتَ أن تُردَّ عقلك مرَّة بعد أخرى وخمسين مرة ومائة مرة إلى الموضوع الذي اعتزمت معالجته؛ فإنَّ الخواطر التي تتنازعك لا تلبث أن تخلِّي مكانها للموضوع الذي آثرته بالاختيار ، ثم تلقى نفسك آخر الأمر قادرًا على حصْر ذهْنك بإرادتك فيما تختار »[1] .

**ويحفل التاريخ الإسلامي بأمثلة عَطِرة :**

فالتابعي الجليل قتادة بن دعامة أفناه شغلُه بالعلْمِ عن نفسه ؛ فقد قال مرَّة لغلامه : يا غلام : ناولني نعلي . قال : نعلُك في رجلك .

والإمام مسلم : كان سبب موته حصْر فكْره في حديث ؛ قال الحافظ أبو عمرو بن الصلاح عن الإمام مسلم : « وكان لموته سبب غريب ، نشأ من غمرة فكرية علميَّة ، فقرأتُ بنيسابور - حرسها الله ، وسائر ديار الإسلام وأهله - فيما انتخبته من « تاريخها » للحاكم النيسابوري على الشيخ الزكي أبي الفتح منصور بن عبد المنعم .

قال أحمد بن سلمة - رفيق مسلم في الرحلة -: عُقِد لأبي الحسين مسلم بن الحجَّاج مجلس للمذاكرة ، فذُكر له حديث لم يعرفه ، فانصرف إلى

---

(١) علو الهمة ، للشيخ محمد إسماعيل صـ ٣٤٧، ٣٤٨ نقلًا عن « رُوح الصلاة في الإسلام » للشيخ عفيف طبارة صـ ٣٢ .

منزله ، وأوقد السراج ، وقال لمن في الدار : لا يدخلنَّ أحد منكم هذا البيت . فقيل له : أُهديتْ لنا سَلة فيها تمر . فقال : قدِّموها إليَّ ، فقدَّموها إليه ، فكان يطلب الحديث ويأخذ تمرة تمرة يمضغها ، فأصبح وقد فنِيَ التمر ، ووجد الحديث . قال الحاكم : زادني الثقة مِن أصحابنا أنه منها مرِض ومات »[١] .

ومن قبله شيخه البخاري :

يقظاتُه ومنامُه شِرَعٌ[٢] كلٌّ بكُلٍّ فهوَ مشتبهُ

يتذكر الحديث في منامه ، فهل سمعتَ بشغَف للعلم مثل هذا ؟!

قال محمد بن يوسف البخاري : كنت مع محمد بن إسماعيل البخاري بمنزله ذات ليلة ، فأحصيتُ عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يُعلِّقها في ليلة ثمان عشرة مرة[٣] .

وقال محمد بن أبي حاتم الورَّاق : كان أبو عبد الله إذا كنتُ معه في سفر ، يجمعنا بيت واحد ، إلَّا في القيْظ أحيانًا ، فكنتُ أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة ، في كل ذلك يأخذ القدّاحة فيوري نارًا ويُسرج ، ثم يُخرج أحاديث فيُعلِّم عليها[٤] .

وما قصَّه الإمام ابن سحنون مع سُرِّيته أمِّ مدام - التي ذكرناها في علو همته في طلب العلم - منا ببعيد ، فارجع إليها ففيها العجب العُجاب !!

والإمام أبو بكر الباغندي من شغله بالحديث وحصر فكره فيه ؛ قال عنه عمر بن شاهين : « قام أبو بكر الباغندي ليصلّي ، فكبَّر ، ثم قال : أخبرنا محمد بن سليمان لُوَيْن ، فسبَّحنا به ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥٦٤/١٢، و « صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحمايته من الإسقاط والسقط » صـ ٦٤ .

(٢) الشرع : جمع الشِّرْع ، وهو المِثْل والشبيه .

(٣) تاريخ بغداد ٧/٢، والسير ٤٠٣/١٢ .

(٤) طبقات السُّبكي ٢٢٠/٢، وتهذيب الكمال ١١٧٠ .

لله رب العالمين »[١] .

والإمام المحدِّث أبو العباس الأصمّ ؛ قال عنه الحاكم : « حضرتُ أبا العباس يومًا في مسجده فخرج ليؤذِّن لصلاة العصر ، فوقف موضع المئذنة ، ثم قال بصوت عالٍ: أخبرنا الربيع بن سليمان، أخبرنا الشافعي.. ثم أذّن»[٢] .

ومن قبلهم شيخ بيت النبوة زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما : قال أبو نوح الأنصاري : « وقع حريق في بيت فيه علي بن الحسين وهو ساجد ، فجعلوا يقولون : يا ابن رسول الله ، النار . فما رفع رأسه حتى طُفئت ، فقيل له في ذلك ، فقال : ألهتني عنها النار الأخرى »[٣] .

## التاسع : القصْدُ وصدْق الإرادة :

قال ابن القيم : « إذا انتبه العبد وأبصر ، أخذ في « القصد » وصدق الإرادة ، وأجمع القصد والنية على سفَر الهجرة إلى الله ، وعلِمَ وتيقَّن أنه لا بدّ له منه ، فأخذ في أُهْبَة السفر ، وتعبِئة الزاد ليوم المعاد ، والتجرُّد عن عوائق السفر ، وقطْع العلائق التي تمنعه من الخروج » .

قال الهروي : « الدرجة الأولى : قصد يبعث على الارتياض ، ويخلِّص من التردُّد ، ويدعو إلى مجانبة الأغراض » .

قال ابن القيم : « فذكر له ثلاث فوائد : أنه يبعث على السلوك بلا توقُّف ولا تردُّد ، ولا غير العبودية ، من رياء أو سمعة ، أو طلب محمدة ، أو جاهٍ ومنزلة عند الخلق » .

قال الهروي : « الدرجة الثانية : قصد لا يلقى سببًا إلا قطعه ، ولا حائلًا إلا منعه،ولا تحامُلًا إلا سهَّله » .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٩٣ .
(٢) المصدر السابق ١٥ / ٤٥٨ .
(٣) السير ٤ / ٣٩١ - ٣٩٢ .

قال ابن القيم : « يعني أنه لا يلقى سببًا يُعَوِّق عن المقصود إلا قطعه ، ولا حائلًا دونه إلا منعه ، ولا تحاملًا إلا سهَّله » .

قال الهروي : « الدرجة الثالثة : قصد الاستسلام لتهذيب العلم ، وقصد إجابة داعي الحكْم » .

قال ابن القيم : « يريد أنه ينقاد إلى العلم ليتهذّب به ويصلُح ، ويقصد إجابة داعي الحكْم الديني الأمري كلَّما دعاه ؛ فإن للحكم في كلِّ مسألة من مسائل العلم مناديًا ينادي للإيمان بها عِلمًا وعملًا ، فيقصد إجابة داعيها . ولكن مراده بداعي الحكم : الأسرار والحِكَم الداعية إلى شرع الحكم . فإجابتها قدْر زائد على مجرَّد الامتثال ؛ فإنها تدعو إلى المحبَّة والإجلال والمعرفة والحمد ، فالأمر يدعو إلى الامتثال ، وما تضمَّنه من الحِكم والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبَّة » .

**العاشر : العزْم على الكمالات :**

قال ابن القيم في « الفوائد » ( صـ ٢٦٠ ) : « العزْم لِقاح البصيرة ، فإذا اجتمعا نال صاحبهما خير الدنيا والآخرة ، وبلغت به همته من العلياء كلَّ مكان. فتخلُّف الكمالات إمَّا من عدم البصيرة ، وإمَّا من عدم العزيمة » .

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » ( ١/١٢٣ ) : « العزم : هو العقْد الجازم على المسير ومفارقة كلِّ قاطِع ومُعوِّق ، ومرافقة كلِّ معين وموصل . وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده».

والعزم نوعان : أحدهما : عزم على الدخول في الطريق ، والثاني : عزم في حال السير معه . وهو أخصُّ من هذا .

فلا تتوقفْ متردِّدًا أو قلقا ، ولا تضيِّع نفسك بالشكوك التي لا تلد إلا الشكوك .

ومشتَّت العزَماتِ يُنفق عمرَهُ    حيرانَ لا ظفرٌ ولا إخفاقُ

وقال آخر :

إذا كنت ذا رأيٍ فكُن ذا عزيمةٍ ... فإنَّ فساد الرأي أن تتردَّدا

وصدق الله العظيم إذ يقول:﴿ **فإذا عزمَ الأمْر فلو صدقوا الله لكان خيرًا لهم** ﴾ .

**أخي** : ألفْتَ عجْزَ العادة ، فلوْ عَلَتْ بك همَّتك ربى المعالي ؛ لاحتْ لك أنوار العزائم .

إذا طلع نجمُ الهمَّة في ظلام ليل البطالة ، وردفَهُ قمرُ العزيمة أشرقت الأرض بنور ربها .

« رأى بعض الحكماء بِرْذَونًا[1] يُسقى عليه ، فقال : لو هَمْلَج هذا لَرُكِب.إقدام العزم بالسلوك اندفع من بين أيديها.سدُّ القواطع محَنٌ يتبيّن بها الصادقُ من الكاذب ، فإذا خُضتَها انقلبتْ أعوانا تُوصلك إلى المقصود »[2] .

قال ابن القيم : « إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته ؛ عرضت له الخوادع والقواطع ، فينخدع أولًا بالشهوات والرياسات ، والملاذِّ والمناكح والملابس ، فإن وقف معها انقطع ، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه ، ابتُلِيَ بوطء عَقِبه وتقبيل يده ، والتوسعة له في المجلس ، والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بَركته ... ونحو ذلك ، فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظَّه منه ، وإن قطعه ولم يقف معه ؛ ابتُلي بالكرامات والكشوفات ، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظَّهُ، وإن لم يقف معها ابتُلي بالتجريد والتخلِّي ، ولذة الجمعية ، وعزة الوحدة ، والفراغ من الدنيا ، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود . وإن لم يقف معه وسار ناظرًا إلى مراد الله منه وما يحبه منه ؛ بحيث يكون عبدَه الموقوف على محابِّه ومراضيه أين كانت وكيف كانت ، تعبَ

---

(١) ضرْب من الدوابِّ دون الخيل وأقدر من الحُمُر .

(٢) الفوائد صـ ٦٠ .

بها أو استراح ، تنعَّم بها أو تألَّم ، أخرجتْه إلى الناس أو عزلته عنهم ، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليُّه وسيِّده ، واقف مع مراده ينفذه بحسب الإمكان ، ونفْسُه عنده أهون عليه أن يقدِّم راحتها ولذَّتها على مرضاة سيده وأمْره - فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ، ولم يقطعه عن سيِّده شيء ألبتة . وبالله التوفيق »[١] .

**الحادي عشر : الغيْرة :**

والغيرة من تمام البصيرة ؛ « لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقِّه ومحبته وإجلاله تكون الغيرة عليه أن يُضيَّع ، والغضب على من أضاعه ؛ فإن ذلك دليل على محبَّة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه ، وذلك عين البصيرة ؛ فكما أن الشك القادح في كمال الامتثال مُعْمٍ لعين البصيرة ، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله إذا ضُيِّعتْ ومحارمه إذا انتُهكت؛ مُعْمٍ لعين البصيرة»[٢] .

والغضب لمحارم الله إذا استُحلَّت - كما يغضب النَّمِر إذا حَرِب -[٣] من صفات عُلاة الهمم .

« وغيرة العبد من نفسه على نفسه ، كغيرته من نفسه على قلبه ، ومن تفرقته على جمعيَّته ، ومن إعراضه على إقباله ، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة . وهذه الغيرة خاصيَّة النفس الشريفة الزكيَّة العلوية ، وما للنفس الدنيَّة المهينة فيها نصيب»[٤] .

وعلى قدر هذه الغيرة يكون شرف النفْس وعلو همتها .

ولم أرَ في عُيوب الناسِ عيبًا كنقْصِ القادرين على التمامِ

---

(١) الفوائد صـ ٢٢٧ .
(٢) مدارج السالكين ١ / ١٢٧ .
(٣) حَرِب النمرُ وغيرُه : إذا اشتدَّ غضبه .
(٤) مدارج السالكين ٣ / ٤٣ - ٤٤ .

وحين ينتكس الإنسان يهوي إلى الدرْك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قطٌّ ، حين تصبح البهائم أرفع منه وأقوم ، حين يرتكس مع هواه إلى درْك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه ، يرتكس في المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين ، ويتمخض للسُّفول ، وإذا ماتت فيه الغيْرة على نفسه وعلى المحارم ؛ يصبح أسفل من البهائم .

ولا يقيم على ضيْمٍ يُرادُ بِهِ إلَّا الأذلَّان عِيرُ الحيّ والوتدُ
هذا على الحبْل مربوطٌ برمّتِهِ وذا يُشجُّ فما يدري بِهِ أحدُ

**الثاني عشر : الدعاء :**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أبخل الناس مَن بخل بالسلام ، وأعجز الناس من عجز عن الدعاء »[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء »[(٢)] .

فإذا أردتَ بابًا أقرب إلى مولاك وأوسع ولا مزاحِمَ فيه ؛ فادخلْ من باب الذلِّ والافتقار ؛ فإن لانكسار القلب تأثيرًا عجيبًا في المحبة وعلوِّ الهمة لا يُعبَّر عنه ، هذه الذلة والكسْرة الخاصَّة تدخلك على الله ، وترميك على طريق المحبَّة ، فيُفتح لك منها باب لا يُفتح لك من غير هذا الطريق ، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة . لكن الذي يُفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار ، وازدراء النفس ، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم ، بحيث تشاهدها ضيعة وعجزًا وتفريطًا وذنبًا

---

(١) صحيح : رواه أبو يعلى في مسنده ، ورواه ابن حبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥١٩ .

(٢) حسن : رواه أحمد ، والبخاري في الأدب ، والترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٣٩٢ .

وخطيئة - نوع آخر وفتح آخر ، وطريق إلى علو الهمة عجيب . ومَنْ ذاق عرف .

والسالك بهذه الطريق غريب في الناس ، وهم في وادٍ وهو في وادٍ ، وهي تسمَّى طريق الطيْر ، يسبقُ النائم فيها على فراشه السُّعاةَ ، فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركْب .

من لي بمِثْل سيْرك المُدَلَّلِ تمشي رُوَيْدًا وتجي في الأوَّلِ

والدعاء والذل والانكسار ، والخضوع والافتقار للربِّ جلّ جلاله ؛ غايةٌ شمّر إليها السالكون ، وأمَّها القاصدون ، ولحظ إليها العاملون ، كيفَ لا والعبد يشهد في كل ذرَّة من ذرَّاته الباطنة والظاهرة ، ضرورة تامَّة ، وافتقارًا تامًّا إلى ربِّه ووليِّه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه ، وهداه وسعادته ، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وإنما تُدرَك بالحصول .

فيحصل لقلبه كسْرة خاصَّة لا يشبهها شيءٌ ، بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل ، الذي لا شيء فيه ولا به ، ولا منه ولا فيه منفعة ، ولا يُرغب في مثله ، وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبْرٍ جديد من صانعه وقيِّمه . فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما مَنَّ ربه إليه من الخير ، ويرى أنه لا يستحقُّ قليلًا منه ولا كثيرًا ، فأيُّ خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلمَ أن قَدْره دونه ، وعلم أن رحمة ربِّه هي التي اقتضت ذكْرَه به وسياقته إليه ، واستقلَّ ما مِن نفسه من الطاعات لربِّه ، ورآها - ولوْ ساوَتْ طاعات الثقَليْن - من أقلِّ ما ينبغي لربِّه عليه ، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه .

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور ، وما أدنى النصر والرحمة والرزق وعلو الهمة منه !! وما أنفع هذا الذلّ له وأجراه عليه !! وذرَّة من هذا ونَفَس منه أحبُّ إلى الله من طاعاتٍ أمثالِ الجبال ، من المدلِّين المعجَبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم .

وأحب القلوب إلى الله سبحانه : قلب قد تمكّنت منه هذه الكسْرة ،

وملكتْه هذه الذلَّة؛ فهو ناكسُ الرأس بين يدي ربِّه، لا يرفع رأسه حياءً من الله.

قيل لبعض العارفين : أيسجُدُ القلب ؟ قال : نعم ، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء .

فهذا سجود القلب .. فقلب لا تباشره هذه الكسْرة فهو غير ساجد السجود المراد منه . وإذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى ؛ سجدت معه جميعُ الجوارح ، وعَنَا الوجهُ حينئذ للحيِّ القيوم ، وخشعتِ الجوارح والأصوات كلها ، وذلَّ العبد واستكان ، ووضع خدَّه على عتَبة العبودية ؛ ناظرًا بقلبه إلى ربِّه ووليِّه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم ، فلا يُرىٰ إلَّا متملِّقًا لربِّه خاضعًا له ، ذليلًا مستعطفًا له ، يقول : كيف أُغضِبُ مَنْ حياتي في رضاه ؟! وكيف أعدل عمَّن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه ؟!

وما الظنُّ بمَنْ هو أرحمُ بعبده من الوالد بولده ومن الوالدة بولدها ، إذا فرَّ عبدُه إليه ، وهرب من عدوِّه إليه ، وألقى بنفسه طريحًا ببابه ، يمرِّغ خدَّه في ثَرَىٰ أعتابه باكيًا بين يديه يقول : يا ربِّ ، يا ربِّ ، ارحمْ مَن لا راحِم له سواك ، ولا ناصِر له سواك ، ولا مأوى له سواك ولا مُغيثَ له سواك ، مسكينك وفقيرك ، وسائلك ومؤمِّلك ومُرجيك ، لا ملجأ له ولا منجا له منك إلَّا إليك ، أنت مَعاذُه ومَلاذه !!

يا مَن ألوذ به فيما أؤمِّلهُ ... ومَن أعوذ به ممّا أحاذرُهُ
لا يَجبرُ الناسُ عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنتَ جابِرُهُ

مولاي وسيدي وربي وإلهي ، أنت أصلحتَ الصالحين وأعليْت من هممهم ، فاجعلنا من الصالحين .. اجعلْنا لك كما تريد لا كما نريد ، سَخِّ أنفسنا عن الدنيا وهمِّهـا ، واجعلْ أنفاسَنا وحركاتِنا وسَكَناتنا وَقْفًا عليك أنت وحدك .

يا عيْنُ سُحِّي أبدَا ... يا نفْسُ موتي كَمَدَا
وَلا تحبِّي أحـدَا ... إلَّا الجليلَ الصَّمَدَا

**الثالث عشر : التنافُس والتنازُع بين الشخص وهمَّته :**

فعلى « مريد تطوير همَّته أن يُضيف أعباءً وأعمالًا يوميَّة لنفسه ، لم تكن موجودة في برنامج حياته السابق ؛ بحيث يحدث نوع من التحدِّي داخل الإنسان لإنجاز ما تحمَّله من أعباء جديدة ، ويجب أن تكون هذه الإضافة مدروسة بعناية وإحكام ، حتى لا يُصاب الشخص بالإحباط واليأس .

ويجب عليه كذلك أنْ يحسن اختيار هذه الأعمال والأعباء الجديدة ، بحيث تكون مُبلِغة له إلى الكمال ؛ « فمن كانت همته حفظَ جميعَ ما كتب محمد ابن الحسن - الشيباني - فالظاهر أنه يحفظ أكثرها أو نصفها »(١) . فالتحدي الذي نشأ في نفسه بسبب، رغبته في حفظ كُتب معيَّنة ؛ سيُوصله إلى حفظ أكثرها . والله أعلم »(٢) .

**الرابع عشر : الحرص على الوقت :**

حياتك أنفاسٌ تُعدُّ فكلَّما ... مضى نفسٌ منها انتقصت به جزءَا
فتصبحُ في نقْصٍ وتُمسي بمثلِهِ ... أما لك معقول تُحِسُّ به رُزءَا
يميتُك ما يحييكَ في كلِّ ساعةٍ ... ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهُزْءَا

عُلاة الهمم يحرصون على « الثانية » من أوقاتهم حرْص الجَمُوع المنوع .. وحتى المصائب لا تلهيهم عن استغلال وقتهم والحرص عليه .

« واليُتْمُ والعمىٰ ، والغربة والفقر ؛ قد تكون أسبابًا للنبوغ والإنجاز والتقدُّم والعطاء .

قد يُنعمُ الله بالبلوىٰ وإنْ عظُمتْ ... ويَبتلي الله بعضَ القوم بالنِّعم

ألف ابن الأثير كتبَه الرائعة ، كـ « جامع الأصول» و «النهاية في غريب

---

(١) تعليم المتعلم في طريق التعلم ، للإمام برهان الدين الزرنوجي . تحقيق صلاح الخيمي ونذير حمدان - نشر : دار ابن كثير .

(٢) الهمة طريق إلى القمة صـ ٥٦ .

الحديث » ؛ بسبب أنه مُقعَد .

وألَّف السرخسيُّ كتابه الشهير « المبسوط » خمسة عشر مجلدًا ؛ لأنه محبوس في الجُبِّ !!

وكتب ابن القيم « زاد المعاد » وهو مسافر !!

وشرح القرطبي « صحيح مسلم » وهو على ظهر سفينة ، وجُلُّ فتاوىٰ ابن تيمية كتبها وهو محبوس .... وأخبرني أحد الصالحين أنه سُجن فحفظ في سجنه القرآن كله وقرأ أربعين مجلدًا »[1] .

لله درهم من أئمة !!

## شمس الأئمة السرخسي في الجُبِّ :

« لقد أملىٰ شمس الأئمة كتابه « المبسوط » - نحو خمسة عشر مجلدًا - وهو في السجن بـ « أوزجند » ، وكان محبوسًا في الجبِّ بسبب كلمة نصَحَ بها الخاقان، وكان يملي من خاطره من غير مطالعة كتاب وهو في الجبِّ، وأصحابه من أعلىٰ الجبِّ، وقال عند فراغه من شرح العبادات: هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات ، أملاه المحبوس عن الجُمَع والجماعات .. !!

وقال في آخر شرح « الإقرار » : انتهى شرح « الإقرار » ، المشتمِل من المعاني على ما هو من الأسرار ؛ أملاه المحبوس في محبس الأشرار .

وللسرخسي كذلك كتاب في أصول الفقه ، وشرح « السير الكبير » أملاه وهو في الجب !! »[2] .

## الخامس عشر : اعتراف المرء بقصُور همَّته :

«اعتراف الشخص بقصور همته وأنه لا بد له أن يطوِّرها ويعلو بها، أمْرٌ

---

(١) « لا تحزن » لعائض القرني صـ ١٠٠ ، توزيع مكتبة ابن تيمية .

(٢) كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء ، لمحمد فهمي عبد اللطيف صـ ٣٠ - دار الاعتصام .

أَوَّلِيٌّ نفسيٌّ لا مناص منه في هذا الباب ، ومِنْ ثَمَّ لا بد أن يعتقد أنه قادر على أن يكون من أهل الهمّة العالية ، فهذان الأمران - الاعتراف بقصور الهمَّة ، واعتقاد إمكانية تطويرها - عاملان مهمَّان لا بدَّ منهما في محاولة تطوير الهمّة ، وبدونهما لا يكون الشخص قد خطا خطوات صحيحة »[1] .

**السادس عشر : مجاهدة النفس :**

من لم يباشر حَرَّ الهجير في طلب المجد لم يَقِلْ في ظلِّ الشرَف .. خُلِق الإنسان في كَبَد ونصَب .. وهناك مَن يكدح في سبيل نزوة وشهوة ، والعظيم يكدح في سبيل عقيدة ودعوة ، وليس للعابد مستراح إلا تحت شجرة «طوبى»، ولا للمحبِّ قرار إلا يوم المزيد ، فاشتغلْ به في الحياة يَكفِك ما بعد الموت .

هان عليهم طول الطريق لعلمهم أين المقصد ، وحَلَتْ لهم مراراتُ البِلٰى حُبًّا لعواقب السلامة ، فيا بشراهم يومَ ﴿ **هذا يومكم** ﴾ .

قفْ بالديار فهذه آثارُهمْ    تبكي الأحبَّة حسْرةً وتشوُّقا
كمْ قد وقفتُ بها أسائلُ مخبرًا    عن أهلها أو صادِقًا أو مشفقا
فأجابني داعي الهوىٰ في رسْمِها    فارقتَ مَن تهوى فعزَّ الملْتقىٰ

**أخي** ، أول الطريق بذل الروح ، هذه الجادَّة فأين السالك ؟

بِدَمِ المُحبِّ يُباعُ وَصْلهمُ    فمنِ الذي يَبتاع بالثَّمن

يا طفلًا في حِجْر العادة، محصورًا بقماط الهوى، ما لك ومزاحمة الرجال؟! تمسَّكتَ بالدنيا تمسُّك المرضع بالظئر ، والقومُ ما أعاروها الطرْف !! ما لك والمحبَّة ، وأنت أسيرُ حَبَّة ؟! كَم بينك وبينهم !! وهل تدري أين هم ؟!

يا هذا ، مَن جاهد نفسه وَجَدَّ وَجَدَ، وليس مَن سَهِر كمَن رقد ، والفضائل تحتاج إلى وثْبة أسد .

---

(١) الهمة طريق إلى القمة صـ ٥١ - ٥٢ .

ونحنُ أناسٌ لا توسُّطَ عندنا　　لنا الصدرُ دونَ العالمين أو القبرُ

**أخي** ، لو قدْ طلعت شمس العزيمة في نهار اليقظة ، لأُنبتَ عالم النشاط في صحراء المجاهدة .

إلَّا تمُتْ تحتَ السيوفِ مُكرَّمًا　　تمُتْ وتُقاسِ الذُّلَّ غيْرَ مُكرَّم

فثِبْ واثقًا باللهِ وثْبةَ ماجدٍ　　يرىٰ الموتَ في الهيجا جَنى النحل في الفمِ

قال ابن القيم رحمه الله : « أَعْرِف مَن أصابه مرضٌ من صداع وحمَّى ، وكان الكتاب عند رأسه ، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه ، فإذا غُلب وضَعَه ، فدخل عليه الطبيبُ يومًا وهو كذلك ، فقال : إنَّ هذا لا يحلُّ لك ؛ فإنك تُعين على نفسك وتكون سببًا لفوات مطلوبك »(١) .

وقال الإمام عيسى بن موسى : « مكثتُ ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامَّة في أكْل هريسة السوق ، فلا أقدر على ذلك ، لأجل البكور إلى سماع الحديث »(٢) .

جاهدْ بقلبك قبْل جوارحك؛ فالاعتبار عندنا بالأعمال القلبية.. غلبت حراراتُ الخوف قلب داود فصار كفُّهُ كِيرًا ، ﴿ **وألنَّا له الحديد** ﴾ ، وقويت رُوحانية محمد ﷺ فنبع الماء من بين أصابعه !!

لولا مدامعُ ساداتٍ ولوْعَتُهمْ　　لَبَان في الناس عِزُّ الماء والنارِ

فكلُّ نار فمنْ أنفاسهم قُدِحَتْ　　وكلُّ ماء فمِن طرْفٍ لهمْ جاري

جاهد يا أخي.. لتكنْ عبدَ الله وحدَه، فحقيقة الحرية في كمال العبودية..

أتمنى على الزمانِ مُحَالًا　　أنْ ترىٰ عيناىَ طلعة حُرِّ

قل لقيود الأرض وزُخرفها : لا ، لا يا قيود الملك ؛ فالمِلك يدعوني إلى جواره في فِرْدوسه .. فجاهِدْ نفسك يا أخي تصل إلى الشرف كل الشرف ، كما قال يحيى بن معاذ : أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد ، وأبناء الآخرة تخدمهم

---

(١) روضة المحبِّين لابن القيم صـ ٧٠ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١/٢٩٨ .

الأحرار والأبرار .

قال ابن أدهم : إن الحرَّ الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يُخرج منها .

وسُئل الجنيد عمَّن لم يبقَ عليه من الدنيا إلا مقدار مَصّ نواة ؟ فقال : المكاتِبُ عبدٌ ما بقي عليه درهم .

قال بشر بن الحارث : « لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد » .

وقال أبو سليمان الداراني : أفضل الأعمال : خلافُ هوىٰ النفْس .

وقال السري السقطي : لن يكمل رجلٌ حتى يُؤْثِر دينه على شهوته ، ولن يهلك حتى يُؤْثر شهوته على دينه .

قيل للمرتعش : إن فلانًا يمشي على الماء ! فقال : إنّ مَن مكَّنه الله من مخالفة هواه ، لهو أعظم من المشي على الماء .

وقال حاتم الأصمُّ : الموتُ الأحمر : مخالفة النفْس .

وقال السري : أقوىٰ الفتوة : غَلَبَتُك نفْسك .

وقال أحمد بن خضرويه : أَمِتْ نفسَك تُحْيِها .

وقال محمد بن أحمد بن سالم البصري : مَن صبر على مخالفة نفسه أوصله الله إلى مقام أُنْسِه .

وقال أبو بكر بن الضرير المقَّري : دافعتُ الشهوات حتى صارت شهوتي المدافعة .

وقد كان أهل الحزْم يعوّدون أنفسهم مخالفة هواها وإن كان مباحًا ، ليقع التمرين للنَّفْس على ترك الهوى مطلقًا ؛ وليطلب الأرباح في المعاملة بترْك المباح .

## السابع عشر : قِصَر الأمل ، وكثْرة ذكْر الموت :

وقصر الأمل يدفع إلى علوِّ الهمة وحُسْن العمل :

فهذه أمُّ الصَّهْباء معاذة العدويَّة زوجة صِلة بن أشيم ؛ « كانت إذا جاء

النهار قالت : هذا يومي الذي أموت فيه .. فما تنام حتى تُمسي ، وإذا جاء الليل قالت : هذه ليلتي التي أموت فيها .. فلا تنام حتى تصبح »[١] .

وكانت حفصة بنت سيرين إذا قامت إلى مصلّاها من الليل لبستْ كفَنَها.

وقال الربيع بن خُثيم : لو غفل قلبي عن ذكر الموت ساعةً واحدة ؛ لفسد قلبي .

وكانت ماجدة القرشية تقول : طوىٰ أملي طلوعُ الشمس وغروبُها ، فما مِن حركة تُسمع ولا مِن قدم تُوضع ؛ إلا ظننتُ أنَّ الموت في أثرها .

وتقول : بسطوا آمالهم فأضاعوا أعمالهم ، ولو نصبوا الآجال وطَوَوا الآمال ؛ خفّتْ عليهم الأعمال[٢] .

عن ابن عمر قال : أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسَدي فقال : « كنْ في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل ، وعُدَّ نفسك في أهل القبور »[٣] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : مرَّ بنا رسول الله ﷺ وأنا وأمي نُطيِّنُ شيئًا ، فقال : ما هذا يا عبد الله ؟ قلتُ : شيء نصلحه . قالَ : « الأمر أسرع من ذلك »[٤] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذْ بصُر بجماعة فقال : « عَلامَ اجتمع عليه هؤلاء ؟» . قيل : على قبر يحفرونه . قال : ففزع رسول الله ﷺ ، فبَدَر من بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر ، فجثا عليه . قال : فاستقبلتُه من بين يديه لأنظر ما يصنع ، فبكى

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ٢٢ .

(٢) صفة الصفوة ٤/٧٤ .

(٣) رواه البخاري .

(٤) صحيح : رواه أحمد والترمذي وأبو داود ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧٨٦ .

حتى بلّ الثّرىٰ من دموعه ، ثم أقبل علينا ، قال : « أيْ إخواني ، لِمثْل هذا اليوم فأعدُّوا »[(١)] .

إن كنت تفهمُ ما أقولُ وتعقِلُ    فارحلْ بنفسِك قبلَ أن بكَ يُرحَلُ
وذَر التشاغُل بالذنوب وخلِّها    حتى متى وإلى متى تتعلَّلُ[(٢)]

قال أبو العباس الدوري : أنشدنا يحيى بن معين هذا البيت :

نؤمِّلُ أنْ نبقى طويلًا وإنما    نعدُّ من الأيام طرفًا وأنفاسا

وقال ذو النون المصري: توسَّدوا الموتَ إذا نمتم، واجعلوه نصْبَ أعينكم إذا قمتم ، كونوا كأنكم لا حاجة لكم إلى الدنيا ولا بد لكم من الآخرة .

وعن أبيٍّ بن كعب قال : كان النبي ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل ، قام فقال : « يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه »[(٣)] .

قال اللبيدي: وجدتُ بعد موت أبي إسحاق الجبنياني رحمه الله رقعةً تحت حصيرة مكتوبة بخطه : « رجل وقف له هاتِف ، فقال له : أحسنْ ، أحسنْ عملك ، فقد دنا أجلُك ».فقال لي ولده عبد الرحمن : « إنه كان إذا قصَّر في العمل ، أخرج الرقعة ، فنظر فيها ورجع إلى جِدِّه »[(٤)] .

ما زال يلهجُ بالرحيل وذِكْرِهِ    حتَّى أناخَ ببابِهِ الجَمَّــالُ
فأصابهُ مستيقظًا متشمِّــرًا    ذا أهْبَةٍ لم تُلهِه الآمــالُ

وكان عمر بن عبد العزيز كثيرًا ما يتمثّل :

---

(١) حسن : رواه البخاري في التاريخ ، وابن ماجه وأحمد، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٥١ .

(٢) الزهد الكبير للبيهقي صـ ٢٨٠ ، دار القلم .

(٣) حسن : رواه أحمد والترمذي ، والحاكم ، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم ٩٥٢، وصحيح الجامع رقم ٧٨٦٣ .

(٤) ترتيب المدارك ٥١٦/٢ .

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلُك نومٌ والردىٰ لكَ لازِمُ
وتعمل فيما سوف تكرَهُ غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ

وقال عبد الرحمن بن عمرو : أدركت امرأة لا أقدِّم عليها رجلًا ولا امرأة ممن أدركت؛ كانت إذا أصبحت قالت: يا نفس، هذا اليوم ، ساعِدِيني يومي هذا ؛ فلعلَّك لا ترَيْن بياض يومٍ أبدًا . وإذا أمست قالت : يا نفسُ ، هذه الليلة ، ساعِدِيني ليلتي هذه ؛ فلعلك لا ترين سواد ليلةٍ أبدًا . فما زالت تخدع وتدفع يومها بليلها وليلها بنهارها ، حتى ماتت على ذلك[1] .

كم من مستقبل يومًا ليس بمستكمِله ، ومنتظِر غدًا وليس بمستدركه !!

وقال إبراهيم بن أدهم : إخواني،عليكم بالمبادرة والجدِّ والاجتهاد ، وسارعوا وسابقوا ؛ فإنَّ نعْلًا فُقِدتْ ، أختُها سريعة اللِّحاق بها .

وقيل للربيع بن خثيم : كيف أصبحت يا أبا يزيد ؟ قال : أصبحنا ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا .

وقال قُبيصة بن عتبة : ما جلستُ مع سفيان الثوري مجلسًا إلا ذكَر فيه الموت ، وما رأيت أحدًا كان أكثر ذكْرًا للموت منه .

وقال مطرِّف: أفسد الموت على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : « أمَّا بعد ، فمَنْ كان آخر علَّته الموت؛ قد مات » . فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : « أما بعد ؛ فكأنك بالدنيا لم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تنل . والسلام عليك » .

وقال الفضيل : كفى بالله مُحبًّا ، وبالقرآن مُؤنسًا ، وبالموت واعظًا ، وكفى بخشية الله علمًا والاغترار بالله جهلًا .

فحقيق على من كان الموت موعده والقبر مورده والحساب مشهده ؛ أن يَقصُر أملُه ، وتعلو همَّته ويَحسُن عمله ؛ فهيِّئ جهازك ، وقدِّم زادك ،

---

(١) الزهد الكبير صـ ٢٥٤ .

وكن وصيَّ نفسِك .

وكان إبراهيم بن أدهم يقولُ كثيرًا : دارنا أمامنا ، وحياتنا بعد موتنا إمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النار .

وكان إبراهيم يقول : مثِّل لبَصر قلبك حضور ملَكِ الموتِ وأعوانه لقبْض روحك ، فانظرْ كيف تكون ، ومثِّلْ له القيامة وأهوالها وأفزاعها ، والعَرْض والحساب والوقوف ، فانظرْ كيف تكون .

وكان رحمه الله يقول : « إن للموت كأسًا لا يقوىٰ على تجرُّعها إلا خائف وَجِل طائع كان يتوقَّعُها » .

وكان الربيع بن أبي راشد يقول : لو فارق ذكْر الموت قلبي لَخشيتُ أن يفسد ، ولولا أن أخالف من كان قبلي لَسكنتُ الجبَّانة حتى أموت .

وقال شقيق البلخي : استعِدَّ إذا جاءك الموت أن لا تسأل الرجْعة .

وقال حاتم الأصمُّ : ما من صباح إلا والشيطان يقول لي : ما تأكل ؟ وما تلبس ؟ وأين تسكن ؟ فأقول : آكل الموت ، وألبَسُ الكفن ، وأسكن القبر .

وقال الفضيل بن عياض : قال ابن المبارك : استعد للموت ولما بعد الموت .. فشهق علي بن الفضيل شهقة فلم يزل مغشيًّا عليه عامَّة الليل .

وقال أحمد بن أبي الحواري عن زوجته رابعة وأحوالها : سمعتُ رابعة تقول : ما رأيتُ ثلجًا قطُّ إلا ذكرتُ تطايُرَ الصحف ، وما رأيتُ جرادًا قطُّ إلا ذكرتُ الحشر ، ولا سمعتُ أذانًا قط إلا ذكرتُ منادي القيامة . قالت : وقلتُ لنفسي : كوني في الدنيا بمنزلة الطير الواقع حتى يأتيك قضاؤه .

رحمها الله،هذا قِصَر أملها!! لقد كان الموت منها على بالٍ؛ فاجتهدت في العبادة ، حتى قال عنها زوجها : ربما نظرتُ إلى وجهها ورقبتها فيتحرَّك قلبي على رؤيتها ، ما لا يتحرَّك مع مذاكرتي أصحابنا ؛ لما أرى عليها من أثر العبادة .

وعن محمد بن أبي توبة : أقام معروف الكرخي الصلاة ثم قال لي : تقدَّم . فقلتُ : إنْ صليتُ بكم هذه الصلاة ، لم أُصل بكم غيرها . فقال معروف : وأنت تحدِّث نفسك أن تصلِّي صلاة أخرى ؟! نعوذ بالله من طول الأمل ؛ فإنه يمنع خير العمل له[١] .

نعم يا أستاذنا .. نعم يا أبا فيروز .. نعم يا ريحانة بغداد .. صلّ صلاة مودِّع !!

قال داود الطائي : يا داود ، من خاف الوعيد قصُرَ عليه البعيد ،ومن طال أمله قصر عمله ، وكلُّ ما هو آتٍ قريب .

وقال محمد السمين : كونوا من الله على حذَر ، ومن دنياكم على خطَر ، ومن الموت على وجَل ، ولقدوم الآخرة على عجَل .

وكتب الأوزاعي إلى أخٍ له : أما بعد ؛ فإنه قد أُحيط بك من كل جانب ، واعلمْ أنه لُيسارُ بك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والمقام بين يديه ، وأنْ يكون آخر عهدك به . والسلام .

وقال أبو يوسف الغسولي : اعلمْ يا أخي أن اختلاف الليل والنهار وممرّهما يُسرعان في هدْم بدنك وفناء عمرك وانقضاء أجلك ، فينبغي لك يا أخي أن لا تطمئنَّ ولا تأمن حتى تعلم أين مستقرُّك ومصيرك ، وساخطٌ عليك ربُّك بمعصيتك وغفلتك أو راضٍ عنك بفضله ورحمته .

وقال السري : اجعلْ قبرك خزانتك ، احشُها من كل عمل يمكنك ، فإذا وردتَ على قبرك سرَّك ما ترىٰ فيها .

ولمَّا عُوتب عطاء السليمي في الرفق بنفسه قال: أتامرونني بالتقصير،والموت في عنقي، والقبر بيتي، وجهنم أمامي، ولا أدري ما يصنع بي ربي عز وجل؟![٢] .

---

(١) الزهد الكبير صـ ٢٣٧ .

(٢) صفة الصفوة ٣ / ٢٤٥ .

فقلْ مع كلِّ نفَسٍ : الآن تُطوىٰ صحيفتي .. وقلْ مقالة يحيى بن معاذ الرازي مع كل نفس :أدمْ جهازك ، وهيِّئْ زادك ، وتهيَّأ للعَرْض على ربك جلَّت عظمتُه .

وقال الفضيل : إنما أمسِ مَثَل، واليوم عمل ، وغدًا أمل .

وقال : ما أطال رجل الأمل إلَّا أساء العمل .

وقال ابن عمر لمجاهد: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذْ من صحتك لمرضك ، وخذْ من حياتك لموتك » .

فأكيسُ الناس : أكثرهم للموت ذكرًا ، وأحسنهم له استعدادًا .

**الثامن عشر : الزُّهْد في الدنيا :**

قال ذو النون المصري : لو وصلوا إلى الله ما رجعوا ، فازهدْ يا أخي ترىٰ العجب !!

وقال الحسن : رحم الله عبدًا جعل العيْش عيشًا واحدًا ، فأكل كِسْرةً ، ولبس خَلقًا ، ولزق بالأرض ، واجتهد في العبادة ، وبكى على الخطيئة، وهرب من العقوبة ابتغاء الرحمة ، حتى يأتيه أجله وهو على ذلك .

قال الجنيد : الزهد : استصغار الدنيا ، ومحو آثارها من القلب .

وقال الحسن : الزهْد راحة للقلب والبدن .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : عظني وأوجِزْ . فكتب إليه : إن رأس ما هو مصلحك ومُصلح به على يديك : الزهد في الدنيا ، وإنما الزهد باليقين ، واليقين بالتفكُّر ، والتفكُّر بالاعتبار ، فإذا أنت فكَّرت في الدنيا لم تجدْها أهلًا أن تبيع بها نفسك ، ووجدت نفسك أهلًا أن تُكرمها بهوان الدنيا ، فإن الدنيا دار بلاء ومنزل قُلْعَة[1] .

قال بشر بن الحارث: مساكينُ أهل الدنيا هم - والله - موضع رحمة .

---

(١) منزل قلعة : المراد أن الدنيا دار رحيل وانقلاع .

عن سعد بن أبي وقَّاص قال : أتى النبيَّ ﷺ رجل ، فقال : يا رسول الله ، أوصني وأوجزْ . فقال النبي ﷺ : « عليك بالإياس ممَّا في أيدي الناس ، وإياك والطمعَ ؛ فإنه فقر حاضر ، وإذا صليتَ فصلِّ صلاة مودِّعٍ ، وإياك مما يُعتذر منه »[(١)] .

والهمَّة الأبيَّة العلية تأنف أن تتعلَّق بخرابات البِلَى وأعطانٍ ضيِّقة آخرها الخراب والبوار .. كيف لا يأنف الإنسان من دنيا أعلى شيء فيها : صنْع دودة ، وبزْقة ذبابة ، ومُبال في مبال ، ما الدنيا إلَّا مأكول أو ملبوس أو مشموم أو مركوب ؛ أما المأكول فأفضله العسَل وهو بزْقة ذبابة ، وأما المشموم فأفضله المسْك وهو دَمُ فأْرةٍ ، وأما الملبوس فأفضله الحرير وهو صُنْع دودة ، وأما المركوب فالخيل وعليها يُقتل الرجال ، والنساء مُبال في مبال تتزين بأجملها يُراد به أقبحها ، فمن زهِد في هذا ؛ رنا بطرْفه وقلبه إلى نعيم الجنات وجوار الكبير المتعال .

**التاسع عشر : معرفة قيمة النفْس :**

**أخي** ، أنت في الخليقة شيء آخر لا يُشبهك أحد ، فاقرأ نفسك واعرف ماذا تقدم .

فليحرصْ العبدُ على أن يرفع قيمته ، ويُغلي ثمنه بعمله الصالح ، وبعلمه ونبوغه ، واطلاعه ومثابرته وبحثه ، وتثقيف عقله وصقْل ذهنه ، وإشعال الطموح في رُوحه ، والنبل في نفسه ؛ لتكون قيمته غالية عالية .

يا هذا،عندك بضائع نفيسة؛ دموع ودماء، أنفاس وحركات، وكلمات ونظرات؛ فلا تبذلْها فيما لا قدر له . أيصلح أن تبكي لفقْد ما لا يبقى ؟ أو تتنفس أسفًا على ما يفنى ؟ أو تبذل مهجة لصورة عن قليل تمحى ؟ ويحك !!

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك . وقال : صحيح الإسناد . وأقرَّه الذهبي ، ووافقه العراقي .

دمعة منك تُطفىء غَضَبَ ربِّك ، وقطرة من دمٍ في الشهادة تمحو زللك ، ونَفَسُ أسَفٍ يَنسِفُ ما سلف ، وخطوات في مرضاتهم تغسل الخطيئات ، وتسبيحة تغرس لك أشجار الخُلْد في الجنات ، ونظرةٌ بعِبْرةٍ تُثمرُ الزهْدَ في الفاني .

يا من هو من أرباب الخبرة ، هل عرفتَ قيمة نفْسك ، إنما خُلقت الأكوانُ كلُّها لك ، يا من غُذي بلبان البرِّ وقُلِّب بأيدي الألطاف ، يا زرْعًا تهمي عليه سحائب الإنعام ؛ كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة ، وصورة وأنت المعنى ،وصَدَفٌ وأنت الدُّرُّ ، ومخيضٌ وأنت الزُّبْد . منشور اختيارنا لك واضِحُ الخط ، ولكنَّ استخراجك ضعيف ، لو عرفت قدْر نَفسك عند مولاك ؛ ما أهنتها ، إنما أُبعِد إبليس إذ لم يسجد لأبيك وأنت في صُلبه .

يا مختار الكون ، وما يعرف قدْرَ نفسه ؛ أما أسجد الملائكة بالأمس لك ، وجعلهم اليوم في خدمتك ؟!

كم من ملَك في السماوات ما ذاقوا غمضًا؛ ليست لهم مرتبةُ ﴿**تتجافىٰ جُنُوبهم عن المضاجع**﴾ !!

كم من ملَك في السماوات ما ذاقوا طعامًا ولا شربوا شرابًا؛ ليس لهم مدْحةُ « ولَخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسْك » . الملائكة تصلّي عليك ما استقمت ، وحملة العرش يستغفرون لك ، وسبَق دعاءُ النبيِّين لك وأنت في بطْن أُمِّك ، هذا قدْرك فأقبِلْ ترَ العَجب !!

يا هذا،كنتَ تدَّعي حُبَّهم ، وتُؤْثر القرْب منهم ، فما هذا الصبر الذي قد عَنَّ عنهم ؟! كنت تستطيبُ ريحَ الأسحار وما تُغيِّر المُحَبَّ ؟! كنتَ في الرعيل الأول ، فما الذي ردَّك إلى السَّاقة ؟! قف الآن على جادَّة التأسُّف ، والزم البكاء على التخلُّف، فأحقُّ الناس بالأسىٰ من خُصَّ بالتعويق دون الرُّفقَاء.

فتِّش عن نفسك ، واعرفْ قدْرك ، تَسْمُ بهمَّتك إلى العظيم .

أُسائلكُمْ عنها فهلْ مِن مُخبِّرٍ فما لي بدَعْدٍ مَن نأت دارُهم عِلْمُ

ولو كنتُ أعلمُ أين خَيَّمَ أَهلُها    وأيَّ بلادِ الله مذ ظعنوا أمُّوا
إذن لسلكنا مَسْلكَ الريح خلفَهَا    ولو أصبحتْ دَعْدٌ ومن دُونها النَّجمُ

**العشرون : الابتعاد عن كلِّ ما شأنُه الهُبوط بالهمَّة :**

من أسباب دناءة الهمة التي ذكرناها في الفصل السابق .

**الحادي والعشرون: مراجعة جَدْول الأعمال اليوميِّ، والعزلة قليلًا، ومراعاة الأولويَّات الأهمِّ فالمهم :**

وهذا أمر مفيد في باب تطوير الهمة ، إذ كلَّما كان ذلك الجدول بعيدًا عن الرتابة والمَلَلِ ؛ كان أجدىٰ في معالجة الهمَّة .

ومثال ذلك : شخص اعتاد أن يزور أقاربه أو صحبه كلَّ يومٍ ، ويقضي الساعات الطِّوال معهم بغير فائدةٍ تُذْكَر ؛ فمراجعة مثل هذا الشخص لجدول عمله تفيده أيَّما فائدة ؛ بحيث يقلِّل من تلك الزيارات لصالح أعمال أخرى تعود على همته بالفائدة .

**والعزلة قليلًا تجمعُ على الإنسان أمْره وهمَّته :**

قال عمر بن الخطاب : « خُذوا بحظِّكم من العزلة » .

وقال الجنيد : « مكابدة العزْلة أيسر من الخلطة » .

وكان ابن المبارك يُكثر الجلوس في بيته ، فقيل له : ألا تستوحش ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه ؟!

**الثاني والعشرون : كمال العقل :**

« قال الحسن : ما يتمُّ دين الرجل حتى يتمّ عقله .

وقال وهب : إن الرجلين يستويان في أعمال البر ، ويكون بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعد ؛ إذا كان أحدهما أعقل من الآخر ، وما عُبِد الله بشيء أفضل من العقل .

وقال يوسف بن أسباط : العقل سراج ما بَطَن وملاك ما علن ، وسائس

الجسد وزينة كل أحد ، ولا تصلح الحياة إلّا به ولا تدور إلا عليه .

وسُئل ابن المبارك : ما خير ما أُعطي الرجل ؟ قال : غريزة عقل . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أدب حسَن . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أخٌ صالح يستشيره . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : صمت طويل . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل »[1] .

قال ابن الجوزي عن العقل : « قاوَم الهوىٰ فردّ غَرْبَه ، وشدَّ أسْر الحزْم ، وقوَّى أزْر العزْم،واستجلبَ ما يَزين ، ونفىٰ ما يَشين ، فإذا تُرك وسلطانه ، أسَر فضول الهوىٰ فحصَرها في حبْس المنْع ، وكفى بهذه الأوصاف فضيلة .

ولا ينبغي أن يُدال الهوىٰ عليه؛ فإنه عدوُّه؛ فيَحطُّه عن رُتْبته ويستنزله عن درجته ، ولا يجوز أن يُجعل – وهو الحاكم عليه– محكومًا ، ولا أن يصير – وهو الزِّمام – مزمومًا ، ولا أن يعود – وهو المتبوع – تابعًا . فمَن صبر على مضيض مشاورته ؛ اجتنى حلاوة المنى في عواقبه »[2] .

« قال أبو جعفر القرشي :

نسبُ ابـــنِ آدم فعلُـــهُ فانظر لنفْسكَ في النَّسَبْ
زَيْـــنُ ابـــنِ آدم عقلُـــهُ والعقـــلُ زينتـــهُ الأدبْ

وقال الله تعالى : ﴿ **أولي الأيدي والأبصار** ﴾ قال مجاهد : الأبصار : العقل .

وقال عروة بن الزبير : أفضل ما أُعطي العباد في الدنيا : العقل ، وأفضل ما أُعطوا في الآخرة : رضوان الله عز وجل »[3] .

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي ، بتصرف صـ ٩ – ١٠ .

(٢) ذم الهوى صـ ١٠ – ١١ .

(٣) كتاب العقل وفضله ، لابن أبي الدنيا ، تحقيق : لطفي الصغير ، صـ ٤٢ – دار الراية .

وعن وهْب بن منبّه قال : مكتوب في حكمة آلِ داود ﷺ : حقٌّ على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يُناجي فيها ربَّه ، وساعة يُحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يُخبرونه بعيوبه ويصدق عن نفسه ، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذَّتها فيما يحلُّ ويجمل ، فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات وإجمامًا للقلوب » .

وقال وهب بن منبه رحمه الله : كما تتفاضل الشجر بالأثمار ، كذلك تتفاضل الناس بالعقل .

نعم يا ابن منبه رحمك الله ؛ فلكل شيء غاية وحدٌّ ، والعقل لا غاية له ولا حدّ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار في الرائحة الطيبة .

وقال عامر بن عبد قيس : إذا عقلك عقلُك عمَّا لا ينبغي فأنت عاقل .

وقال وكيع بن الجرّاح: العاقل مَن عقل عن الله- عز وجل- أمْره، وليس مَن عقل تدبير دنياه .

وقال سفيان بن عيينة: لا تنظروا إلى عقل الرجل في كلامه، ولكن انظروا إلى عقله في مخارج أموره .

وقال رحمه الله : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، ولكن العاقل الذي يعرف الخير فيتّبعه ، ويعرف الشرَّ فيجتنبه .

والقلوب أوعية ، والعقول معادن ، فما في الوعاء ينفد إذا لم يمدَّه المعادن .

وقال ابن جريج : قوام الرجل عقله ، ولا دين لمن لا عقل له .

وقال بشر بن الحارث : النظر إلى الأحمق سُخْنة[١] عيْن .

رحمك الله يا بشر،إذن فالنظر إلى العاقل قرَّة عين !!

**أما حديث العاقل والحديث عنه :**

---

(١) سُخنة العين : نقيض قرَّتها .

فقد قال المغيرة بن شعبة : الحديث عن عاقل أحبُّ إليّ من الشهد بما رضفه بمخض الأرفى[١]. فقال زياد: كذلك فلَهُو أعجبُ إلى العاقل من رثية فنين بسلالِهِ ثغبٌ ، في يوم شديد الوديقة ، ترقص فيه الآجال .

قال الشعبي : « إنما كان يطلب هذا العلم مَنِ اجتمعتْ فيه خصلتان : العقل والنسُك . فإن كان ناسكًا و لم يكن عاقلًا ، قال : هذا أمْر لا يناله إلا العقلاء...فلم يطلبه ، وإن كان عاقلًا و لم يكن ناسكًا ، قال : هذا أمر لا يناله إلا النُّسَّاك . فلم يطلبه ، فقال الشعبي : ولقد رَهبتُ أن يكون يطلبه اليوم من ليست فيه واحدة منهما ، لا عقل ولا نسك » .

وكمال العقل: حُسن المعرفة بالله، وحُسن الطاعة، وحُسن الصبر على أمره.

وعقلك يا أخي لا يتسع لكل شيء، ففرِّغْه لأول المهم من أمرك ، وليس من العقل أن تذَرَمن الخير ما لا بدّ منه .. فاللهم ارزقنا عقلًا تنفعنا به ، واجعلنا نعقل عنك .

**الثالث والعشرون : التحوُّل عن البيئة المثبِّطة :**

قال شيخي المكرّم – ومن هو أحبُّ إليَّ من سواد عيني – محمد بن أحمد بن إسماعيل : « إن للبيئة المحيطة بالإنسان أثرًا جسيمًا لا يخفى ، فإذا كانت بيئة مثبِّطة داعية إلى الكسَل والخمول وإيثار الدُّون ؛ فإن على المرء أن يهجرها إلى حيث تعلو همته ، كي يتحرَّر من سلطان تأثيرها ، وينعم بفرصة الترقِّي إلى المطالب العالية .

تقول ابنةُ السعْدي وهْي تلومني أمَا لكَ عنْ دارِ الهوانِ رحيلُ
فإنَّ عناء المستنيم إلى الأذى بحيث يَذلُّ الأكرمون طويلُ

---

(١) قال ابن أبي الدنيا : الرضفة : الصخرة ، المخض : اللبن ، الأرفى : الظِّباء ، الرافية : اللبن الذي لم يخرج زبدُه .

وعندك محبوكُ السَّراةِ مطهّمٌ     وفي الكف مطرورُ الشباةِ صقيلُ(١)

وأشدُّ الناس حاجةً إلى تجديد البيئة المحيطة وتنشيط الهمة : الحديثُ العهْدِ بالتوبة ؛ فإن من شأن التحوُّل من بيئة المعصية إلى بيئة الطاعة : أن ينسيه ما يجذبه إلى صُحبة السوء وأماكن السوء ، فيجتمع قلبه ، ويلتئم شمله ، وتتوحَّد همته ، وتتوجَّه بصدقٍ وعزم إلى أسلوب من الحياة جديد ، وهذا عين ما أشار به « العالم » الواعي علىٰ قاتِل المائة حين شفَّع قوله : « نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة » ؛ بقوله : « انطلق إلى أرض كذا وكذا ؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ؛ فإنها أرض سوء » . ولما جاءه الموت ، واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، كان قربه إلى القرية الصالحة بالنسبة إلى بلد السُّوء سببًا في قبض ملائكة الرحمة إياه ، ففي بعض الروايات : « فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبرٍ ، فجُعل من أهلها » .

وفي رواية : « فأوحىٰ الله تعالى إلى هذه أن تباعدي ، وإلى هذه أن تقرَّبي ، وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر ، فغفر له » .

وفي رواية : « فنأى بصدره نحوها » .

ولعلَّ هذا المعنى كامن أيضًا في تشريع نَفْي الزاني غير المُحصن وتغريبه سنة بعيدًا عن وطنه ، كي تجتمع عليه عقوبة بدنية بالجَلْد ، وعقوبة قلبية بالنفْي ، وفي الوقت نفسه يُبْعَد عن مسرح الجريمة كي ينسىٰ ذكراها ، ولا يبقى حيثُ يُعامَل باحتقار وإهانة ، ويتعرَّض للمضايقات ، ويُعْطىٰ فرصة كافية لاستئناف التوبة الصادقة والحياة الكريمة »(٢) .

---

(١) فرس محبوك : قوي شديد ، سراة الفرس : أعلى متنه ، والمطهَّم : التامّ المتناهي في الحسن ، والمطرور : ذو المنظر والرواء والهيئة الحسَنة ، والشَّباة : حَدُّ طَرَف السيف ، والصقيل : المجلوّ .

(٢) علو الهمة ، للشيخ محمد إسماعيل صـ ٣٥٠ - ٣٥١ .

**أخي** ، إن الماء يَفسد بقربه من الجِيَف وكذا الهواء ، وإذا بعدت قليلًا عن مكان الجِيف ، يزول ما كنتَ تجده ، فكيف بأنفاس العُصَاة .. ألا تنظر إلى فعْل المعصية بآبار ثمود بعد آلاف السنين ؟! لمّا مرّ عليها الصحابة وأرادوا أن يستقوا منها فمنعهم رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يلقوا بعجينهم إلى النواضح.

فالفرارَ الفرارَ من بيئة الكسَل والركود ودناءة الهمم.

ولا تتخذْ بالسَّيْر رُفقةَ قاعدٍ ودعْهُ فإنَّ الشوْق يَكفيكَ حاملَا

«فنَزْع المدعو من بيئته وغَمْسه – لفترة كافية – في بيئة أخرى ؛ يسهِّل تطبيع هذا التائب بغَرْسِ قِيم ومفاهيم جديدة ، مع تطهيره من القيم المراد نزْعها من قلبه ، وبصورة سَلِسَة وتلقائية وفعّالة ، فالجوهرة إذا سقطت في مكان نَجِس فيحتاج ذلك إلى كثير من الماء حتى تُنَظَّف ، إذا صببناه عليها وهي في مكانها ، ولكن إذا أخرجناها من مكانها سهل تنظيفها بالقليل من الماء »[1] .

**الرابع والعشرون : مصاحبة صاحب الهمة العالية :**

**أخي** : اعلم أن الرجل بلا خَدِين ، كذي الشمال بلا يمين ، فاتخذْ ذوي الهمم العالية أعوانًا ، واخلط نفسك مع الأبرار ، وطهِّرها من الفجّار واجتنب الصغار الأخطار ، اللئام الأقذار ؛ فالمرء يُعرف بقرينه . فاصحب من يحملك في سيرك إلى الله عز وجل لا مَن تحمله

ولا تتخذ بالسَّير رُفقة قاعد وَدعْه فإنَّ الشَّوْقَ يكفيك حاملا

**أخي** : قد سمعتَ أخبار المتقين فسِرْ في سرْبهم ، وقد عرفت جدّهم فتناول من شربهم ، ثم سل من أعانهم يُعنك .

لا يُؤيِّسنَّك من مجْدٍ تباعُدُه فإنَّ للمجدِ تدريجًا وترتيبا
إنَّ القناةَ التي شاهدتَ رِفْعَتَها تنمى وتنْبُتُ أنبوبًا فأنبوبا

فاسلك طريقهم تكن رفيقهم، وانزل بواديهم يصوِّت بك صوت حاديهم،

---

(١) المصدر السابق صـ ٣٥٢ .

إن كنت في جوارهم حملوك إلى ديارهم ..

**أخي** : اصحبْ مَن يعظك بلحظه قبل وعظه بلفظه ، ومن كان بعالي الخير موصوفًا لا وصّافا ، فإن الواو والراء والدال لا تشمُّ منها رائحة الورد ، فاصحب أهل المعاني ودع أرباب الدعاوي .

هاتيك ربوعهم وفيها كانوا بانوا عنها فليتهم ما بانوا
ناديتُ وفي حشاشتي نيرانُ يا دارُ متى تحوَّل السُّكانُ

رؤية وجوه الصالحين تشحذ الهمم فكيف بكلامهم ونُصْحهم .

كان الناس إذا رأوا وجه وكيع بن الجراح قالوا : هذا مَلك . وإذا رأوا وجه محمد بن سيرين سبحوا الله ؛ لمخايل النور التي على وجهه .

قال رسول الله ﷺ: «أولياء الله تعالى الذين إذا رُؤا ذكر الله تعالى»[١] .

إن لم تكن مع القوم في السَّحَر ، تلمَّحْ آثار الحبيب عليهم وقت الضحى ، ترى في صحائف الوجوه سطور القبول بمداد الأنوار « وجوه زهاها الحسن أن تتبرقعا » . .

قال جعفر بن سليمان : « كنتُ إذا وجدت من قلبي قسوة ، غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع ، كان كأنَّه ثكلى »[٢] .

وقال الفضيل بن عياض : نظر المؤمن إلى المؤمن يجلو القلب ، ونظر الرجل إلى صاحب بدعة يُورث العمى ، من جلس مع صاحب بدعة ، لم يُعط الحكمة . وقال عبد الله بن المبارك : « إذا نظرتُ إلى الفضيل جدَّد لي الحزن ، ومَقَتُّ نفسي . ثم بكى »[٣] .

(١) حسن : رواه الحكيم عن ابن عباس والطبراني في الكبير ، والمروزي ، وأبو نعيم ، والضياء وابن المبارك عن سعيد بن جبير مرسلا ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم ١٧٣٢ ، والسلسلة رقم ( ٢٥٥٤ ) .

(٢) السير ٦ / ١٢٠ .

(٣) السير ٨ / ٤٣٨ .

إن كان هذا نظر الأكابر من شيوخ الإسلام إلى العُبَّاد.. وكيف يؤثِّر في علوِّ همَّتهم ويشحذها ، فما فعله في غيرهم ؟!!

هذا قول ابن المبارك في الفضيل بن عياض ، فما يقول الفضيل بن عياض عن أبي إسحاق الفزاري ؛ قال الفضيل بن عياض : « ربما اشتقتُ إلى المِصِّيصَة ، ما بي فضل الرِّباط إلا أن أرى أبا إسحاق رحمه الله »[1] .

وإن كان الأكابر من العُبَّاد والعلماء يحتاجون إلى من يفتِّش ويُخرج لهم الخبايا من الدقائق التي قد تذهب بنور العمل فما الظن بغيرهم ؟!!

« قال ابن شوذب : قسَّم أميرُ البصرة على قُرَّائها ، فبعث إلى مالك بن دينار فأخذ ، فقال له ابن واسع : قبلتَ جوائزهم ؟! قال : سلْ جلسائي . قالوا : يا أبا بكر ، اشترى بهم رقيقًا فأعتقهم . قال : أنشدك الله ، أقلبُك الساعة على ما كان عليه ؟ قال : اللهم لا ، إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع »[2] .

«قال أبو عبد الله الأنطاكي : اجتمع الفضيل والثوري فتذاكرا ، فرقَّ سفيان وبكى ، ثم قال : أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة . فقال له الفضيلُ : لكني يا أبا عبد الله أخاف أن لا يكون أضرَّ علينا منه ؛ ألستَ تخلَّصتَ إلى أحسن حديثك ، وتخلصتُ أنا إلى أحسن حديثي ، فتزيَّنتَ لي وتزيَّنتُ لك؟ فبكى سفيان وقال: أحييتني أحياك الله»[3].. فإن كان سفيان وهو من هو يحتاج إلى توجيه الفضيل ، فكيف بمن لا يساوي غبار نعْل الثوري ؟!!

« فيا أطروش الهوى ، صاحب مَنْ يسمع .. يا أعمى البصيرة ، امش

(١) السير ٨ / ٥٤١ .
(٢) السير ٦ / ١٢٠ .
(٣) السير ٨ / ٤٣٩ .

مع من يبصر.. تشبّه بالصالحين تُعدّ في الجملة؛ هذا الطاووس يحبُّ البساتين فهو يوافق الأشجار ، إذا ألقت ورقها ألقى ريشه ، فإذا اكتست اكتسى .

لو سِرْتَ في حزب المتقين لعرفوا لك حقَّ الصُّحبة .

يا من كان لهم رفيقًا ، فأصبح لا يعرف لهم طريقا . اطلب اليوم أخبارهم واتبع في السلوك آثارهم. فإن وقعت ببعضهم حملك إلى أرضهم»[1] .

محتْ بعدكم تلك العيونَ دموعُها فهل مِن عيونٍ بعدها نستعيرُها
رحلنا وفي سِرِّ الفؤاد ضمائرٌ إذا هبَّ نجديّ الصّبا يستثيرُها
ترفَّقْ رفيقي هل بدت نار أرضهم أم الوجد يذكي نارَه ويثيرُها
سقى الله أيامًا مضت ولياليا تضوَّع ريَّاها وفاح عبيرُهـا

يا من كثر تردُّده إلى المجلس ولم يزل بعيدًا عن همم القوم ، لا تضجر فللدوام أثر ،جَالِس البكّـائين يتعدَّ إليك حزنهم ؛ فتأثير الصحبة لا يخفى ، أما ترى دودَ البقول أخضر ؟!

يا من يشاهد ما يجري على الخائفين ولا ينزعج ، أقلُّ الأقسام أن يبكي رحمة لهم .

ولمَّا وقفنا في الديار تشابهتْ جسومٌ براهُنَّ البلى وطلولُ
فباكٍ بداءٍ بين جنبيه عارف وباكٍ بما جَرَّ الفراق جهولُ

« صاحبْ علاة الهمم وصافهم ، واستفدْ من أخلاقهم وأوصافهم . إن لم يكن لك مكنة البذر ، ولم تطق مراعاة الزرع ، فقف في رفقة ﴿ **وإذا حضر القسمة أولو القربى** ﴾ .

إن صدقت في طلابهم فانهض وبادرْ ، ولا تستصعبْ طريقهم فالمعين قادر ، تعرّضْ لمن أعطاهم ، وسلْ فمولاك مولاهم ، رُبَّ كنز وقع به فقير ،

---

(١) المدهش لابن الجوزي ٤٥١ .

ورُبَّ فضل فاز به صغير.. علمَ الخضر ما خفي على موسى، وكُشف لسليمان ما غُطِّي عن داود .

لا تلتفت إلَّا إلى من دلّك على الله وعلى الطريق الموصِّلة إليه.اسلكوا جادَّة القوم لعلَّ مشاعلهم تلوحُ لكم ؛ تعلَّقوا بغبارهم لعلَّ الحادي يُنَوِّه بكم ، صَوِّتوا بالقوم عسى يقف بعض الساقة لكم ، ابكوا على تأخُّركم لعلَّ عطف الرحمة تنعطف نحوكم .

ويا حُداة الظَّعن قد أسلمني إلى الضَّنا فراقكم لي فقفوا
لعلني أن أشتفي بنظـرة يبلُّ منها المستهامُ المُدنَفُ
ففي الضُّلوع جمرةٌ ما تنطفي وفي الشئون عبرة ما تُنزفُ

**أخي**: زاحمِ التائبين، وادخل في حزب البكَّائين، وكل غريب للغريب نسيب.

قال محمد بن يوسف: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقسمون ميراثك، وهو قد تفرَّد بجَدَثك يدعو لك وأنت بين أطباق الثرى »[1] .

وقال الحسن البصري : « إخواننا أحبُّ إلينا من أهلنا وأولادنا ؛ لأن أهلنا يذكِّروننا بالدنيا ، وإخواننا يذكِّروننا بالآخرة » .

قال إبراهيم النخعي : « جالسوا التوابين ؛ فإنهم أرقُّ الناس قلوبًا،ورحمة الله إليهم أقرب »[2] .

كان الإمام أحمد إذا بلغه عن شخص صلاحٌ أو زهدٌ أو قيامٌ بحقٍّ أو اتباعٌ للأمر، سأل عنه، وأحبَّ أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله.

«قال رحمه الله : لقد رأيت أقوامًا صالحين ؛ رأيتُ عبدَ الله بن إدريس وعليه جبَّة من لبود قد أتت عليها سنون ، ورأيتُ أبا داود الحفري وعليه جبَّة مُخرَّقةٌ، قد خرج منها القطن، وهو يُصلِّي فيترجَّح من الجوع، ورأيتُ أيوب

---

(١) روضة الزاهدين لعبد الملك الكليب صـ ٩١ .

(٢) والموعد الله ، لخالد محمد خالد صـ ٣١ .

النجار وقد خرج من كل ما يملكه ، وكان في المسجد شابٌّ مصفر يقال له : العوفي ؛ يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكي »[١] .

قال إسماعيل الديلمي : كنتُ في البيت عند أحمد بن حنبل ، قال : فدخلت إليه فقلت : يا أبا عبد الله ، بالباب شابٌّ عليه أطمارُ شعر يطلبك . قال : فخرج إليه فسلَّم عليه ، فقال له الفتى : يا أبا عبد الله ، ما الزهد في الدنيا ؟ فقال له أحمد : ثنا سفيان عن الزهري : أن الزهد في الدنيا قصر الأمل . فقال له : يا أبا عبد الله ، صِفْه لي . قال : وكان الفتى قائمًا في الشمس والفيءُ بين يديه، فقال : هو أن لا تبلغ من الشمس إلى الفيءِ. قال: ثم ذهب ليولِّي، فقال له أحمد : قفْ . قال : فدخل ، فأخرج له صُرَّة فدفعها إليه ، فقال : يا أبا عبد الله ، من لا يبلغ من الشمس إلى الفيء أيّ شيء يعمل بهذه ؟! ثم تركه وولَّى[٢] .

لله درُّك يا أحمد .. إن كان هذا حال مَنْ يسأله ، فكيف حال من دنا منه وخالطه ؟!

وإخوانه الأَدْنَونَ كلُّ موفَّقٍ بصيرٍ بأَمْر الله يسمو إلى العُلا

انظر إلى علو همة من يجالس الأكابر كإمام أهل السنة أحمد بن حنبل :

فهذا أبو بكر المروذي تلميذ أحمد بن حنبل ، وكان خصيصًا بخدمة أحمد ، كان يبعثه في حوائجه ويقول : كل ما قلت فهو على لساني وأنا قلته . وكان أحمد يقدمه ويأكل من تحت يده ، ولما قدم أحمد من العسكر كان يقول : جزى الله أبا بكر المروذي خيرًا . وهو الذي تولَّى إغماض أحمد لمَّا مات وغسَّله .

قال أبو بكر الخلال : خرج أبو بكر المروذي إلى الغزو فشيَّعه الناس إلى سامرَّا ، فجعل يردُّهم فلا يرجعون ، قال : فحرزوا فإذا هم بسامرَّا- سوى

---

(١) المدهش صـ ٣١٢ .

(٢) مناقب الإمام أحمد صـ ١٩٤ .

من رجع – نحو من خمسين ألف إنسان . فقيل : يا أبا بكر ، احمد الله فهذا علم قد نُشِر لك . فبكى ثم قال : ليس هذا العلم لي ، وإنما هذا علم أحمد ابن حنبل(١) .

وبدر بن أبي بدر – أبو بكر المغازلي – كان الإمام أحمد يقدمه ويكرمه ويقول : من مثل بدر قد ملك لسانه ، وكان صبورًا على الفقر والزهد .

وزكريا بن يحيى الناقد : كان عابدًا ، وكان أحمد يقول عنه : هذا رجل صالح وكان يقول : اشتريتُ من الله تعالى حوراء بأربعة آلاف ختمة ، فلمَّا كان آخر ختمة سمعت الخِطَاب من الحوراء وهي تقول : وفيّتَ بعهدك ، أنا التي اشتريتني . فيُقال : إنه مات عن قريب(٢) .

« وعبد الوهاب الورَّاق جمع بين العلم والتُّقى ، وقيل لأحمد : مَن نسأل بعدك ؟ فقال : سلوا عبد الوهاب ؛ فإنه رجل صالح،مثله يوفَّق لإصابة الحق »(٣) .

وإسحاق بن منصور الكوْسج تلميذ أحمد بن حنبل ، وهو الذي دوَّن عن الإمام أحمد المسائل في الفقه ، فبلغه أنَّ الإمام رجع عن تلك المسائل التي علَّقها عنه ، فجمع رحمه الله تلك المسائل في جراب وحملها على ظهره وخرج ماشيًا من نيسابور إلى بغداد ، وعرض خطوط أحمد عليه في كلِّ مسألةٍ استفتاه بها ، فأقرَّ له بها ثانيًا ، وأُعجب أحمد بذلك من شأنه(٤) .

من أراد أن ينظر إلى علو الهمَّة ، وكيف تُكتسب بمرافقة الأئمة علاة الهمة ، فلينظر إلى الأئمة وتلاميذهم وإخوانهم الذين رافقوهم .

فابن عباس يضع الكبل في رِجْل عكرمة ليتعلم القرآن والسُّنن ، ومغيرة

---

(١) المصدر السابق صـ ٦١١ .

(٢،٣) المصدر السابق صـ ٦١٦ .

(٤) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١ / ١١٤ .

الضبي يذاكر إخوانه الفقه إلى الفجر ، وكذا القاضي التابعي ابن شبرمة يذاكر إخوانه إلى الفجر ، والزهري يلازم ابن المسيب ثماني سنين فتعلو همَّته بصحبته ، يقول عنه ابن أخيه : « جمع عمِّي القرآن في ثمانين ليلة » .

وابن القاسم تلميذ مالك بن أنس ، يأتي مالكًا سَحَرًا ، فيسأله عن المسألة والمسألتين والثلاثة ، وكان يتوسَّد عتبتَهُ، وأناخ بباب مالك سبع عشرة سنة .

وأبو يوسف يموت ابنه فيترك جهازه ودفنه لأهله ويحضر درس أبي حنيفة .

ومحمد بن الحسن الشيباني تعلو همته بصحبته لأبي حنيفة ، فلا ينام إلا القليل ، ويقول : نامت عيونُ المسلمين تعويلًا علينا ، فإذا نمنا ففيه تضْييعُ الدين .

وقد مرت بك قصة أسد بن الفرات مع أستاذه محمد بن الحسن الشيباني.

والمزني تلميذ الشافعي .. من قال فيه الشافعي : « المزني ناصر مذهبي .. » يؤلِّف مختصره في عشرين سنة ، يجمع ما تفرَّق من كلام الشافعي ، وإذا فرغ من تبييض مسألة أودعها مختصره صلَّى ركعتين !!.

من أراد أن ينظر كيف تُشحذ الهمم بمرافقة الصالحين وخدمتهم ، فلينظر في العراقي وتلميذيْه الهيثمي وابن حجر ، وفي النووي وتلميذه وخادمه علاء الدين علي بن العطار :

كان ابن العطار لشدة ملازمته - للنووي - وتحققه به ، يقال له : « مختصر النووي » ولشدة إعجاب ابن العطار بشيخه النووي - ويحق له ذلك - انقطع للتلمذة عليه ست سنوات ، فيقول رحمه الله : وكانت مدة صحبتي له مقتصرًا عليه دون غيره ، من أول سنة سبعين وستمائة وقبلها بيسير إلى حين وفاته .

يقول ابن العطار عن شيخه النووي : « وكان رحمه الله تعالى رفيقًا

بي ، شفيقًا علي ، لا يُمكِّن أحدًا من خدمته غيري ، على جهْد مني في طلب ذلك منه ، مع مراقبته لي – رضي الله عنه – في حركاتي وسكناتي ، ولطفه بي في جميع ذلك ، وتواضعه معي في جميع الحالات ، وتأديبه لي في كلِّ شيءٍ حتى الخطرات ، وأعجز عن حصر ذلك » .

قال النووي عن تلميذه وخادمه ابن العطار : « قد أخبرني من أثق بخبره وصلاحه وكراماته وفلاحه» ... فللخادم والتلميذ كرامات .. فما أحلاها من علامات لعلوِّ الهمَّة !!

قال ابن العطار : « وأذن لي – رضي الله عنه – في إصلاح ما يقع لي في تصانيفه ، فأصلحتُ بحضرته أشياء ، فكتبه بخطه ، وأقرَّني عليه ، ودفع إلَيَّ ورقةً بعدَّة الكتب التي كان يكتب منها ويصنِّف بخطه ، وقال لي : إذا انتقلت إلى الله تعالى ، فأتممْ « شرح المهذَّب » من هذه الكتب . فلم يقدَّر ذلك لي »[1] .

وكان ابن العطار يأخذ على شيخه في الدرس ، فقيل له في ذلك ، فقال : « لا تسقط الثمرة من الشجرة إلا بهزِّ الأفنان ، أو التقطُّف بالبنان »[2] .

وأيضًا سيرة ابن تيمية مع تلاميذه : الذهبي وابن كثير وابن القيم خاصة :

يقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية : « كان أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا ، وأقواهم قلبًا ، وأسرَّهم نفسًا ، تلوحُ نضرة النعيم على وجهه ، وكنا إذا اشتدَّ بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كلّه ، وينقلبُ انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينة »[3] .

---

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين لابن العطار صـ ٥٥ .
(٢) طبقات الشافعية لابن هداية الله صـ ٢٢٨ .
(٣) الوابل الصيب صـ ٧٦ .

ولله درُّ يحيى بن معاذ إذ يقول : « ولِيُّ الله ريحان في الأرض ، فإذا شمّه المريدون ووصلت رائحته إلى قلوبهم اشتاقوا إلى ربهم »[١] .

وكان أحمد بن حرب يقول : « ليس شيءٌ أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين والنظر إلى أفعالهم ، وليس شيء أضرَّ على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر إلى أفعالهم » . قال ابن عباس : النظر إلى وجه الرجل يدعو إلى السُّنّة عبادة .

وانظر إلى صُحبة الأخيار من طلّاب العلم كيف تُعلي الهمم :

قال الحافظ جعفر بن درستويه : « كنا نأخذ المجلس في مجلس علي بن المديني وقت العصر اليوم لمجلس غدٍ ، فنقعد طوال الليل ؛ مخافة ألا نلحق من الغد موضعًا نسمع فيه ، فرأيتُ شيخًا في المجلس يبول في طيلسان ، ويُدرج الطيلسان ؛ مخافة أن يُؤخذ مكانه إن قام للبول »[٢] .

قال ابن عقيل الحنبلي : « عصمني الله من عنفوان الشبيبة بأنواع من العصمة ، وقصر محبتي على العلم وأهله ، فما خالطتُ لعَّابًا قطُّ » .

وعلى المرء أن «يحترز عن مجالسة صاحب السوء ؛ ليقصي ولاية شياطين الجن والإنس من صحْن قلبه ، فيصفَّى عن لوثة شيطانية »[٣]، كما قال الغزالي فنعوذ بالله من صحبة البطّالين .

أنت في الناس تقاسُ بالذي اخترتَ خليلا
فاصْحَبِ الأخيارَ تعلو وتنلْ ذكْرًا جميلا

فصاحبْ يا أخي أهل المعاني المتيقّظين للدقائق والثواني ؛ فإن صحبة هؤلاء تعلِّمُ منافسة الزمان .. ولله درُّ إقبال إذ يقول :

---

(١) تنبيه المغترين للشعراني صـ ١٧ .
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ٢ / ١٣٨ .
(٣) أيها الولد المحب ، للغزالي صـ ١٣٠ .

هبْ نجيًّا يا ولي النعمةِ محرمًا يدرك ما في فطرتي
هبْ نجيًّا لَقِنًا ذا جِنَهْ ليس بالدنيا له مِن صِلَهْ

«قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا رزقكم الله - عز وجل - مودَّة امرئ مسلم فتشبَّثوا بها .

وقال رضي الله عنه : لقد أحببت في الله - عز وجل - ألف أخ ، كلهم أعرف اسمه واسم أبيه واسم قبيلته ، وأعرف مكان دارهم »[1] . أي أنه كان بزورهم ويأتيهم لقوله : « أعرف مكان دارهم » .. رضي الله عن الفاروق فلا حياة لمن لا إخوان له .

وكان الثوري يتمثَّل :

ابْلُ الرجَال إذا أردت إخاءَهم وتوسَّمَنَّ أمورَهم وتفقَّد
فإذا وجدتَ أخَ الأمانةِ والتُّقى فبه اليديْن قريرَ عيْن فاشْددِ

وكتب الأحنف بن قيس إلى صديق له : « أما بعد : فإذا قدم عليك أخ لك موافق ، فليكنْ منك مكان سمعك وبصرك ... فانظر إلى هذا وأشباهه فاجعلهم كنوزك وذخائرك ، وأصحابك في سفرك وحضرك ؛ فإنك إن تقرّبهم تقرَّبوا منك ، وإن تباعدهم يستغنوا بالله - عز وجل - والسلام » .

ولله درُّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذ يقول: «عليك بإخوان الصدق، فعشْ في أكنافهم ؛ فإنهم زيْن في الرخاء وعدَّة في البلاء » . ولا تكن أخي مناخَ البطَّالين .

**الخامس والعشرون : قراءة تراجم وسِيَر سَلَف الأمة :**

لله درُّهم من سادة علماء السلف وعُبَّاده .

ومن عجب أني أحِنُّ إليهمُ وأسأل شوقًا عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهمْ في سوادها ويشكو النوى قلبي وهمْ بين أضلُعي

(١) كتاب الإخوان لابن أبي الدنيا صـ ١١٢ طبع دار الاعتصام .

ولله درُّ القائل :

إذا حضر الشتاءُ فأنتَ شمْس    وإن حَلَّ المصيفُ فأنتَ ظِلُّ
جُزيت عن البريَّة كلَّ خير    فأنت الماجدُ البطلُ الأجَلُّ
بوجهك نستضيءُ إذا سَرَيْنا    جبينٌ في الليالي مُشْمعِلُّ
وذِكركُ في المسامع خيرُ هادٍ    يُكرَّرُ في الجموع فلا يُمَلُّ
فدتْك نفوسُنا عن كل هولٍ    ويفديك الحجيجُ إذا أهلُّوا

ولله درُّ القائل :

حالت لفقدكُمُ أيَّامُنا فغدت    سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا
ليُسق عهدكمُ عهد السرور فما    كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

وقول القائل :

تضيقُ بنا الدنيا إذا غبتمُ عنا    وتزهق بالأشواقِ أرواحُنا منَّا
بعادكمُ موتٌ وقربكمُ حيا    ولو غبتمُ عنَّا ولو نفَسًا مُتْنا
نعيش بذكراكم ونحيا بقربكم    ألا إن تذكار الأحبةِ يُنعِشُنا

ماذا يفعل الرجل منا وقد تبدل الزمانُ وأهله .. إن البعد - ولو قليلًا - عن الطيبين وذكرهم؛موتٌ لا يكاد يطيقه عاقل .

فهذا الصحابي عثمان بن أبي العاص يقول عنه الحسن : « تزوَّج عثمان ابن أبي العاص امرأةً من نساء عمر بن الخطاب فقال : والله ما نكحتُها رغبة في مال ولا ولد ، ولكني أحببتُ أن تخبرني عن ليل عمر »[١] .

وعن ابن أبي ليلى : تزوَّج رجل امرأة ابن رواحة ، فقال لها : تدرين لم تزوجتك ؟ لتخبريني عن صنيع عبد الله في بيته[٢] .

(١) الزهد لابن حنبل صـ ١١٨ ، ١١٩ ، ورجاله ثقات .
(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة ٦ / ١٧٨ - ١٧٩ ، وصحَّح سنده ، ورواه الذهبي في السير ١/٣٣ .

وقال أحمد بن سلمة النيسابوري : « تزوَّج إسحاق بن راهويه بامرأة رجل كان عنده كُتُب الشافعي ، مات ، لم يتزوَّج بها إلا للكتب[1] ، فلما قرأ كتبه قال : ما كنت أعلم أنَّ الشافعي في المحل ، ولو علمت لم أفارقه » .

ولله درّ من قال :

تعلّلا أن حُرمنا طيبَ رؤيتِهِ مَن فاته العينُ هدَّ الشوق بالأثرِ

« فإن أخبار العلماء العاملين والنبهاء الصالحين من خير الوسائل التي تغرس الفضائل في النفوس ، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وتبعثُها إلى التأسِّي بذوي التضحيات والعزمات؛ لتسمو إلى أعلى الدرجات وأشرف المقامات .

و « الحكايات جندٌ من جنود الله تعالى يثبِّت الله بها قلوبَ أوليائه » .

قال أبو حنيفة رحمه الله:« الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليَّ من كثير من الفقه ؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم » .

وقال مالك بن دينار : الحكايات تحفُّ الجنة .

وقال الجنيد : الحكايات جند من جنود الله عز وجل ، يُقوِّي بها إيمان المريدين . فقيل له : هل لهذا من شاهد ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **وكلّا نقُصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبتُ به فؤادك** ﴾ .

وقال آخر : استكثروا من الحكايات فإنها دُرَرٌ ، وربما كانت فيها الدرَّة اليتيمة .

وسماع أخبار الصالحين لذَّة ما تفوقها لذة ، وخيرُ وسيلة لإشعال العزائم ، وإثارة الروح الوثَّابة ، وقدْح المواهب ، وإذْكاء الهمم ، وتقويم الأخلاق ، والتسامي إلى معالي الأمور ، والترفُّع عن سفسافها ، والائتساء بالأسلاف الأجلاء – هو قراءة سِيَر نبغاء العلماء الصلحاء ، والوقوف على أخبار الرجال

(١) السير ١٠/ ٧٠، وتاريخ ابن عساكر ١٥/٤/٢ ، والحلية ٩ / ١٠٢ .

العظماء، والتملّي من اجتلاء مناقب الصالحين الربَّانيين، والاقتراب من العلماء النبهاء العاملين المجدين ؛ فذلك خير مهماز لرفْع الهمم ، وشدِّ العزائم ، وسمو المقاصد، وإنارة القلوب، وإخلاص النيَّات، وتفجير النبوغ والطاقات المدفونة ، والصبر على اجتياز العقبات الصعاب ، واحتلال ذرا المجد الرفيع ، وكسْب الذكر الحسن ، واغتنام الباقيات الصالحات »[(١)] .

ولسنا نريد بذكر التراجم قصصًا وحكاياتٍ ، دون فقه وعلم نافع يُعرف الناس بدينهم فيحملهم على العمل ، كبني إسرائيل قال عنهم ﷺ : « إن بني إسرائيل لمَّا هلكوا قصُّوا »[(٢)] . أي لما هلكوا بترك العمل أخلدوا إلى القصص وعوَّلوا عليها . قاله المناوي .

لا نريد هنا .. لا نريد أن نتبع سَنَن من كان قبلنا ... إنما نريد تطبيق الأئمة العاملين وفهمهم للكتاب والسنة .. أناس سِيط الحقُّ بدمائهم ، وامتزج حبُّ القرآن والسنة بلحومهم ودمائهم ، وكان الاتباع أحبَّ إليهم من سواد أعينهم .. فكانوا قدوة في العلم والعمل .

ومطالعة التراجم ، وسَبْر مواطن العظة في حياة العظماء ؛ وسيلة هامة من وسائل التربية،فإن الحيّ لا تُؤمن عليه الفتنة .

ما في الخيام أخو وجد يريحك إنْ  بَثَثتَه بعض شأن الحبِّ فاغْتربِ

« قال نُعيم بن حماد : كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته ، فقيل له : ألا تستوحش ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه »[(٣)] .

قال ابن الجوزي : سبيلُ طالب الكمال في طلب العلم ، الاطلاعُ على الكتب التي قد تخلَّفت من المصنفات ،فليكثر من المطالعة ؛ فإنه يرى من علوم

(١) صفحات من صبر العلماء صـ ١٧ - ١٨ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والضياء ، وأبو نعيم في الحلية ، والأشبيلي في الأحكام عن خباب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ( ٢٠٤١ ) .

(٣) سير أعلام النبلاء ٨ / ٣٨٢ .

القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره ، ويحرِّك عزيمته للجد ، وما يخلو كتاب من فائدة .

وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم ، لا نرى فيهم ذا همَّة عالية فيقتدي بها المبتدي، ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله، وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم، وأخبارهم؛ فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم ، كما قال :

فاتني أنْ أرى الديار بطرفي    فلعلِّي أرى الديارَ بسمعي

قال ابن الجوزي : « لو قلتُ : إني قد طالعت عشرين ألف مجلد ، كان أكثر ، وأنا بعدُ في الطلب ؛ فاستفدتُ بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم ، وقدر هممهم ، وحفظهم ، وعباداتهم ، وغرائب علومهم ؛ ما لا يعرفه من لم يُطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب.ولله الحمد»[(١)] .

**السادس والعشرون : الصبر والمثابرة :**

فإنما تُنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

« وطالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبْس قلبه في طلبه ومطلوبه ، وحبْسه عن الالتفات إلى غيره ، وحبس لسانه عمَّا لا يفيد ، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته ، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات ، وحبسها على الواجبات والمندوبات ، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربَّه فيخلِّصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه . ومتى لم يصبر على هذين الحبسيْن وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات ، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند الخروج من الدنيا ؛ فكل خارج من الدنيا إما متخلِّص من الحبس وإما ذاهب إلى الحبس »[(٢)] .

---

(١) صيد الخاطر ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) الفوائد صـ ٧٢ .

وقل ساعدي يا نفسُ بالصبر ساعةً فعند اللقا ذا الكدّ يصبحُ زائلا
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويصبحُ ذا الأحزانِ فرحانَ جاذلا

ومن تلمَّح حلاوة العافية هان عليه مرارة الصبر .

**أخي** : هان سهر الخدَّام لما علموا أن أصواتهم بسمع الملك ، أما نحن فألفنا عجز العادة ، فلو علتْ بنا هممنا رُبى المعالي؛ للاحتْ لنا أنوارُ العزائم ..

**أخي** : نزول همَّة الكساح دلَّاه في جُبِّ العذرة ، وصبْرُ أهل اليقين جعلهم أئمة الدين . من استطال الطريق ضعف مشيه .

وما أنت بالمشتاق إن قلت بيننا طوال الليالي أو بعيد المفاوز

قد علمتَ أين المنزل فاحدُ لها تَسِرْ ، وأعلى الهمم همَّة مَنِ استعد للقاء الحبيب وصبر ، وقدَّم التقادم بين يدي الملتقى .

لا بدَّ من مرابطة على الحقِّ الذي عرفت جماله ، والإيمان الذي ذقت حلاوته ، فحذار من التلوُّن .

كل يـوم تتلـوَّنْ غير هذا بك أجملْ

جمع فيك عقل الملَك وشهوة البهيمة وهوى الشيطان ، وأنت للغالب عليك من الثلاثة؛ إنْ غلبتَ شهوتك وهواك زدت على مرتبة ملَك ، وإن غلبك هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة كلب .

علَّمت كلبَك فهو يترك شهوته في تناول ما صاده احترامًا لنعمتك ، وخوفًا من سطوتك ، وكم علَّمك معلِّمُ الشرع وأنت لا تقبَل !!

أتى الكلبُ إلى الأسد فقال له : : يا ملك الغابة غيِّر لي اسمي ؛ فإن كلب اسم قبيح . فأعطاه قطعة من اللحم وقال : احتفظ بها إلى الليل ؛ فإن احتفظت بها غيَّرنا لك اسمك . فلما كانت الظهيرة واشتدَّ به الجوع ورأى اللحم لم يصبر ولم يجاهد نفسه ، وجعل ينظر إلى اللحم ويقول : وما كلب .. إن « كلب » اسم جميل .. كلب كلب.ثم أتى إلى السبع ليلا فقال : غيِّر لي اسمي . فقال له السبع : ائتمناك على قطعة من اللحم إلى الليل فلم تصبر ؛ فكيف نأتمنك

على الاسم الجميل ؟!!

ياسائرين إليه الدَّرْب لا تقفوا طابَ الوصولُ لمحرومٍ تمنَّاهُ

قال تعالى: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلنا وإن الله لَمَعَ المحسنين**﴾ [ العنكبوت : ٦٩ ] . فعلَّق سبحانه الهداية بالجهاد ؛ فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا ، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا ، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سُبُل رضاه .

ولا يتمكَّن من جهاد عدوِّه في الظاهر إلَّا من جاهد هذه الأعداء باطنًا ، فمن نُصر عليها نُصِر على عدوه .

وفاز بالوصل مَنْ قد جدَّ وانقشعتْ عن أفقه ظلمات الليل والسُّحبِ
فعادِ كلَّ أخي جبنٍ ومَعجَزةٍ وحاربِ النفس لا تلقيك في الحَرَبِ
واسْر في غمرات الليل مهتديًا بنفحةِ الطِّيب لا بالعود والحَطَبِ
وخذْ لنفسك نورًا تستضيءُ به يومَ اقتسام الورى الأنوارَ بالرُّتَبِ

قال رسول الله ﷺ : « أحب الأسماء إلى الله:عبد الله وعبد الرحمن والحارث »[(١)] .

وقال رسول الله ﷺ : « خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدق الأسماء همَّام وحارث ، وشرُّ الأسماء حرب ومُرَّة »[(٢)] .

قال المناوي: «أصدق الأسماء همام وحارث، وذلك لمطابقة الاسم لمعناه؛ إذْ كلُّ عبدٍ متحرك بالإرادة ، والهم مبدأ الإرادة ، ويترتب على إرادته حرْثُه وكسْبه ، فإذًا لا ينفكُّ مسماهما عن حقيقةِ معناهما »[(٣)] .

---

(١) صحيح : رواه ابن عدي عن أنس ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ( ٩٠٤ ) .

(٢) صحيح : رواه ابن وهب في الجامع عن عبد الوهاب بن بُخْت ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم (١٠٤٠) .

(٣) فيض القدير للمناوي ١ / ١٦٩ .

## السابع والعشرون : الخلوة :

« الخلوة مَهْرُ بِكْرِ الفِكْرِ ، وسُلَّمُ معراج الهمة ، حريمُ العزلة مَصون من عيْبِ غيْثِ عَبَثٍ ، إذا خلت دار الخلوة عن الصور ؛ تفرَّغ القلبُ لملاحظة المعاني .

أوْحَشتْني خَلَواتي بكَ مِن كلِّ أنيسِ
وتفـرّدتُ فعاينْـــ ـتُكَ بالغيب جليسي
ودعاني الوجـدُ والحـــ ـبُّ إلى المعنى النفيسِ
فبدا لي أن مهْرَ الْـ ـحب أنفاسُ النفوسِ
فكتبتُ العهدَ للحـــ ـبِّ على طِرْسِ الرَّسيسِ

يا هذا ، إذا رُزقت يقظة ، فصنها في بيت عزلة ، فإن أيدي المعاشرة نهَّابة . احذر معاشرة الجُهَّال فإن الطبع لص ، لا تصادقنَّ فاسقًا فإن من خان أوّل منعم عليه لا يفي لك .

الأنس بالأنس ريق، المخالطةُ تُوجب التخليط، وأيسرُ تأثيرها تشتيتُ الهمِّ.

أقل ما في سقوطِ الذئب في غنم إن لم يُصبْ بعضَها أن ينفر الغنم

قطْع العلائق أصل الأصول ، تأمَّلوا إلى الفرس إذا قدم إلى الماء الصافي كيف يضرب بيديه فيه حتى يتكدّر ، أتدرون لم ؟ لأنه يرى صورة نفسه في الماء الصافي وصورة غيره ، فيكدّره حتى لا تتبين في الصور فيتهنّى بالشرب . لا يظهر في خلوة المتيقظ إلا الحق ؛ كان أويس يهرب من الناس فيقولون : مجنون »[1] ، وهو كما قال رسول الله ﷺ : « سيد التابعين » .

## الثامن والعشرون : واقع المسلمين المُرُّ والمؤلم يصنعُ الرجال ويُعلي الهمم :

وآه من ذلَّة تُرادُ للجباه ..

أين يا قلبُ أسكبُ الدمع أنّى طُفتُ ألقى مذلَّة وخُنوعا

(١) المدهش ٤٤٢ - ٤٤٣ .

آهٍ وألف آه من قوافل الضياع المشرَّدة .

قوافلُ تمضي بين أفواجِ رُضَّعٍ ... وأحزانِ ثكلى أو تباريح أَيِّمِ
وبين صبايا يا لَذلٍّ دموعِها ... وأفواجِ أطفال وأمواجِ يُتَّـمِ
قوافلُ تمضي وهْي تسحبُ خَطْوها ... ذليلًا على شَوْكٍ مُدَمٍّ وَمُوضِمِ(١)
تكادُ عيونُ الطفل تسأل مَن أنا ... إلى أين أمضي يا فيافي تكلّمي
أتحملني دورُ النصارى وبيعةٌ ... وساحاتُ شِرْكٍ أو منازلُ سُوَّمِ
لتُنْزع منـي فطـرةٌ وطهـارةٌ ... ويُغرَسَ بي شرك وفتنةُ مأثمِ

آهٍ وألفُ آهٍ من واقعنا المرّ !!

اسألوا الأرض عن رُفات الضحايا ... واسألوا الليل عن ظلام السجونِ
إنما رُزء أمتـي في رجـالٍ ... همُّهم في فروجهم والبطونِ
يتعالـون فوقنـا ونراهـم ... سُجَّدًا عند أرجل التنِّيـنِ
وبَلَوْنـا شئـونهم فرأيْنـا ... أنهم أتخموا إلى الغرب مَيْلا
كشيـاهِ الجزّارِ تسعـى إليـه ... أو كمن يُنكحُ الثريَّا سُهَيْلا
وقبيحٌ من الفتى أن يكونَ الـ ... ـرَّأسَ في قومه فيصبحُ ذيْـلا
أُمّتي يـا أعزَّ شيءٍ بقلبـي ... رحل العمرُ والجناحُ مهيضُ
رحل العمـرُ والمآسي خِضَمٌّ ... جـازه غيرُنـا ونحن نخوضُ
رحل العمرُ والليالي اكتئابٌ ... معتم لم يُشرْ إليـه ومـيضُ
أُمَّتـي هـذه المصائب زَنْـدٌ ... يُشعلُ العزمَ حين يغفو النهوضُ(٢)

من آلامنا تبزغ آمالنا .. والرجال تصنعهم المِحَن .. وابتسامة الفجر الوليد تبزغ من أشد ظلمة في الدياجي ..

---

(١) مُوضِم : مؤلم .

(٢) نقوش على واجهة القرن الخامس عشر ، لعبد الرحمن العشماوي صـ ٨١ – مكتبة العبيكان .

**متى يفيق النائمون ؟!**

هل بقي شيءٌ من الذّل لم نتجرعه على أيدي إخوان القردة والصليبيين.. القدس ويا لذل القدس .. البوسنة ويا لذل البوسنة ..

أضِيعُوها كما كنتم    أضعتم قبلها القُدسا
وسيروا في جنازتِها    فقد أتقنتمُ الدَّرْسا
وأصبحتم لقاتِلهـا    جنودًا تحفرُ الرِّمْسا
وأصبحتم لقاتِلهـا    نعالًا تتْقِن الدَّوْسا
وصِرْتم يا لَجَهْلكُمُ    عبيدًا بُلَّهًا خُرْسا
أنسلمُهـا لقـوَّادٍ    يُقوِّمُ حسنها شوْسا
لقد دُفنَتْ شهامتُكم    وقيل لأُمِّكم تَعْسا

**متى يفيق النائمون ؟!** :

شهداؤنا بين المقابر يهْمسونْ
والله إنَّا قادمونْ
في الأرض ترتفع الأياديْ
تنبتُ الأصوات في صمْتِ السُّكونْ
والله إنَّا راجعونْ
تتساقط الأحجارُ يرتفع الغبارْ
تضيءُ كالشمس العيونْ
والله إنَّا عائدونْ
شهداؤنا خرجوا من الأكفانْ
وانتفضوا صفوفا ثم راحوا يصْرخونْ
عارٌ عليكم أيها المستسلمونْ
وطنٌ يُباعُ وأمة تنساق قطعانًا

وأنتم نائمونْ
شهداؤنا فوق المنابر يخطبونْ
قاموا إلى لبنان صلوا في مساجدِها
وزاروا المسجد الأقصى
وطافوا في رحاب القدس واقتحموا السُّجونْ
في كلِّ شبرٍ من ثرىٰ الوطن المكبَّل ينبتونْ
من كل ركن في رُبوع الأمة الثكْلىٰ
أراهم يخرجونْ
شهداؤنا وسط المجازر يصرخونْ
الله أكبرُ منك يا زمن الجنونْ
الله أكبرُ منك يا زمن الجنونْ
الله أكبرُ منك يا زمن الجنونْ
شهداؤنا يتقدمون
أصواتهم تعلو على أسوار بيروت الحزينة
في الشوارع في المفارق يهدرونْ
إني أراهم في الظلام يُحاربونْ
رغم انكسار الضوء في الوطن المكبَّل بالمهانة والدمامة والمجون
والله إنَّا عائدونْ
أكفاننا ستضيء يومًا في رحاب القدس
سوف تعود تقتحم المعاقل والحصونْ
شهداؤنا في كلِّ شبْرٍ يصْرخونْ
يا أيُّها المتنطِّعونْ
كيف ارتضيتم أن ينامَ الذئبُ في وسط القطيع وتأمنونْ
وَطَنٌ بعَرْضِ الكونِ يُعرَض في المزادْ

وطغمة الجرذان في الوطنِ الجريح يُتاجرونْ
أحياؤنا الموتى على الشاشات
في صَخَبِ النهاية يَسْكرونْ
مَن أجهض الوطن العَريقَ
وكبَّل الأحلام في كلِّ العيونْ
يا أيها المتشرذمونْ
سنخلص الموتى من الأحياء
من سَفَهِ العميلِ العابث المجنونْ
والله إنَّا قادمون
**﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون ﴾**
شهداؤنا في كل شبرٍ في البلاد يُزمْجرونْ
جاءوا صفوفًا يسألون
يا أيُّها الأحياءُ ماذا تفعلونْ ؟
في كلِّ يوم كالقطيع على المذابح تُصْلبونْ
تتسرَّبون على جناح الليل
كالفئران سرًّا للذئاب تهَرْولونْ
وأمام أمريكا تُقامُ صلاتُكم فتسبِّحون
وتطوفُ أعينُكم على الدولار
فوق ربوعه الخضراء يبكي الساجدونْ
صورٌ على الشاشات
جرذان تصافح بعضها
والناسُ من ألم الفجيعة يضحكونْ
في صورتيْن تُباع أوطان وتسقط أُمَّة
ورؤسكم تحت النعالِ وتركعون

في صورتين تُسلِّمُ القدس العريقة للذئاب
ويسكرُ المتآمرونْ
شهداؤنا في كلِّ شبرٍ يَصْرخونْ
بيروت تسْبحُ في الدماء وفوقها الطاغوت يهدرُ في جنونْ
بيروتُ تسألكم أليس لعِرْضِها حقٌّ عليكم
أين فَرَّ الرافضونْ
وأين غاب البائعونْ
وأين راح الهاربونْ
الصامتون .. الغافلون ..
الكاذبون ؟
صمتوا جميعًا
والرصاصُ الآن يخترقُ العيونْ
وإذا سألتَ سمعتَهم يتصايحونْ
هذا الزمانُ زمانهم
في كلِّ شيءٍ في الورى يتحكمونْ
لا تسرعوا في موكب البيع الرخيص فإنكم
في كل شيء خاسرونْ
لن يترك الطوفانُ شيئًا كلكم في اليمِّ يومًا غارقونْ
تجْرون خلف الموت
والنخَّاس يجري خلفكم
وغدًا بأسواق النخاسة تُعْرَضونْ
لن يرحم التاريخ يومًا من يفرِّط أو يخونْ
كُهَّانُنا يترنَّحونْ
فوق الكراسي هائمون _

في نشوةِ السُّلطان والطغيان راحوا يسكرونْ
وشعوبنا ارْتاحتْ ونامتْ
في غياباتِ السجونْ
نام الجميع وكلّهم يتثاءبونْ
فمتى يُفيق النائمون ..
متى يفيق النائمونْ ؟![1]

ولله درُّ من قال :

أرى البلايا تُحيطُ المرءَ تحصنُه ... حتى لَئنْ صحَّ ذوبُ الصَّخرِ لم يذُبِ
أوْ صحّ أن قناة الصلْب قد وَهنت ... فلا يلين إذا ما صُبَّ في اللّهبِ
ما حصحصَ الحقُّ إلا بعد ما انسلخت ... مِن عمر يوسف أعوامٌ من النَّصَبِ

يقول الدكتور « صالح آدم بيلو » في قصيدته « عرفتُ الطريق » :

كلما ازدادت عليَّ المِحَنُ
وتوالتْ إحنٌ لا تَهِنُ
وكُروبٌ يصطفيها الزمنُ
وظلامٌ كافرٌ أو فِتَنُ
فلتطهير وتدريب عميقِ
واختبار الذهب الصِّرْف الحقيقي
وإذا عاندت يومًا يا « رفيقي »
فلأني قد تبيَّنت طريقي
إنْ ذَوَتْ في الغُصْنِ بعضُ الوَرَقاتِ
وتهاوتْ للثرى مستبقاتِ
ورمتْها الريحُ في وادي الشَّتاتِ

---

(١) « متى يفيق النائمون » قصيدة لفاروق جويدة .

فعلى الأغصان زاهي الزهراتِ
وهنا طلع رضيٌّ النفحاتِ
فتعلَّمْ .. ذاك عنوانُ الحياةِ
خَسِئَ السَّاقطُ مِن ماضٍ وآتِ
إنْ مضى فَلْيمض ملعونَ المماتِ
وإذا ما جِرْتَ يومًا يا صديقي
لنمائي ولإيماني الوثيقِ
فاعتبرْ .. إني تبيَّنت طريقي

**التاسع والعشرون : سبْرُ فقه الابتلاء والدعوة :**

لله سنن ماضية في الدعوات وفي الابتلاء ، ومن سُنة الله في الابتلاء امتحان المؤمنين بالشدائد قال تعالى : ﴿ **أمْ حسبتم أن تدخلوا الجنَّة ولمَّا يأتكم مثلُ الذين خلَوْا من قبلكم مسَّتْهم البأساءُ والضرَّاءُ وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين ءامنوا معه متى نصر الله ألَا إنَّ نصرَ الله قريب** ﴾ [ البقرة : ٢١٤ ] .

وقال تعالى : ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ في أموالِكم وأنفسكم ولتسْمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب مِن قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا وإن تصبروا وتتقوا فإنَّ ذلك مِن عزْم الأُمور** ﴾ [ آل عمران : ١٨٦ ] . فمن عزائم الأمور الصبر على الأذى والالتزام بالتقوى ، « فهذا مما يجب أن يعزمَ عليه المؤمنون ، من الأمور التي تُزْهِقُ الباطل وتنصرُ الحقَّ وأهله »(١) .

وأشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، ومع هذا يحذرُ الإنسان من جلْب المِحَن أو الحرص عليها . واستعجال المحن ناشئٌ من جهْل الجماعة المسلمة ؛ قال رسول الله ﷺ : « لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ وسَلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا »(٢) .

---

(١) السنن الإلهية لعبد الكريم زيدان صـ ٨٨ ، مؤسسة الرسالة .
(٢) رواه البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى .

ومن فقه البلاء أن المرء لا ينبغي له أن يذلَّ نفسه ؛ لقول رسول الله ﷺ : « لا ينبغي للمؤمن أن يذلَّ نفسه » . قالوا : كيف يذلُّ نفسه ؟ قال : « يتعرَّض من البلاء لما لا يطيق »(١) .

والاستعجال جرَّ كثيرًا من المستعجلين إلى مصارعهم، مما أدَّى إلى تراجُع الدعوة في كثير من الأقطار سنين عددا .

وهذا خباب بن الأرت يلاقي ما يلاقي من الأعداء ، وقد كان يُوضع على الحديد المحمي ، فما ينطفئُ لهبُه إلا بما يسيلُ من وَدَك ظهره ، فيأتي إلى رسول الله ﷺ يسأله : ألا تستنصر لنا ؟ فعدَّ رسول الله ذلك استعجالًا ؛ لأنه مأمور بعدم الاستعجال : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرُّسل ولا تستعجل لهم** ﴾ [ الأحقاف : ٣٥ ] .

إن طريق الدعوة شاقٌّ طويل.. وطريق مرير، حتى لتحتاج نفسٌ كنفس رسول الله ﷺ في تجرُّدها وانقطاعها للدعوة ، وفي ثباتها وفي صلابتها وفي صفائها ؛ تحتاج إلى هذا التوجيه الربَّاني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنِّتين .

ومن سنن الله نصر أوليائه: ﴿**إنا لننصرُ رُسُلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقوم الأشهاد**﴾ [غافر: ٥١]. وقال تعالى: ﴿**ولقد سبقتْ كلمتُنا لعبادنا المرسلين إنهم لهُمُ المنصورون وإنَّ جندَنا لهُمُ الغالبون**﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

ولا بد من فهْمٍ لمظاهر الانتصار حتى تُشحذ الهمم ؛ فقد يكون النصر بالغلبة المباشرة والقهر للأعداء ، وقد يكون النصر بإهلاك المكذِّبين .

وقد يكون النصر بما يتصوّره الناس هزيمة؛ من قتْل وسجْن وطرْدٍ وأذى.

وقد يكون النصر بانتصار المنهج وظهوره ، كما قال سيد قطب رحمه

---

(١) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن حذيفة ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ( ٦١٥ ) .

الله : « إن كلماتنا وأقوالنا تظلُّ جثثًا هامدة حتى إذا متنا في سبيلها وغذَّيناها بالدماء عاشتْ وانتفضتْ بين الأحياء »[(١)] .

وقد يكون الانتصار بانتصار الداعية على نفسه ، بأن يعرف أن رهبة السجن أكبر من حقيقته ، وينكشف له الباطل وزيفه .

ولله درُّ ابن تيمية حين يُسْجن فيقول : « ما يصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري أينما رُحت فهي معي ، إن معي كتاب الله وسنة نبيه ؛ إن قتلوني فقتلي شهادة ، وإن نفوني عن بلدي فنفيي سياحة ، وإن سجنوني فأنا في خلوة مع ربي . إن المحبوس مَن حُبس عن ربِّه ، وإن الأسير من أسره هواه » .

ولما أغلقوا عليه باب القلعة بدمشق قال : ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنُه فيه الرحمة وظاهرُه مِن قِبَله العذاب** ﴾ ، لو يعلمون ما أسْدوا إليَّ من الجميل بسجنهم إيَّاي في القلعة ما كافأتهم عليها بملء القلعة ذهبًا . وتفرَّغ شيخ الإسلام للتفسير وقال : « لو استقبلتُ من عمري ما استدبرتُ لجعلت حياتي وقفًا عليه » . وأخذوا أقلامه ، فكان يكتُب بالفحم على جُدران السجن ، ولما أخذوا منه كل شيء تفرَّغ لتلاوة القرآن ، ومات وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ **إن المتقين في جنات ونهر في مقعدِ صِدْق عند مليك مقتدر** ﴾ [ القمر : ٥٤- ٥٥ ] .

ويومَ موته سجن شيخُ الإسلام ابنُ تيمية مَن سجنوه .. إي والله .. من مات سجينًا في سجنهم يسجنُ ظالميه يوم موته !! فلم يستطيعوا أن يخرجوا يوم موته من بيوتهم ؛ خوفًا من بطْش العامة بهم .

ويعلمُ الداعي أن ثباته على مبدئه انتصار باهر ، وأن النصر قد يكون بقوَّة الحُجَّة وصِحَّة البرهان ، وأن الانتصار غير محصور في زمان أو مكان ، فزمانه الحياة الدنيا ثم الآخرة ؛ مات ابن تيمية في سِجْنه ، وانتصرت دعوته أعظم الانتصار بعد عدَّة قرون من وفاته .

---

(١) حقيقة الانتصار للدكتور ناصر سليمان العمر صـ ٢١ ، طبع دار الصفوة .

ويعلمُ الداعية أن النصَر قد يكون بالمنع ، أي منع أعدائه من الوصول إليه .

إذا فقه الداعي حقيقة الانتصار ؛ جدَّ وسعى في هداية الناس للإيمان ، وعلتْ به همَّتُه ، وأيقن أن الكاذب لا بد أن يُفتضح ، ومتى علم الداعي قول الله: ﴿ **إنَّ الله لا يُصلحُ عملَ المفسدين** ﴾ ، و ﴿ **وأن الله لا يهدي كيدَ الخائنين** ﴾ .

مَن فقه وعلم الثوابت والسنن في الدعوة ، علمَ أن المستقبل لهذا الدين ، وأن أهل الباطل مهما انتفخوا فهم هباء ..

الداعية بفقهه هذا تعلو همَّته ويكون من صُنَّاع الحياة بشموخه وضربه المثل العالي ، « كذاك الذي انقطع به حبل المشنقة لحظة إعدامه بالباطل فقال : كلُّ جاهليتكم رديئة .. حتى حبالكم رديئة !! »[1] .

وليس وراء صنعة الشموخ حبةُ خردلٍ من معنى دعوة .

عائدٌ أنا من حيث أتيت
عائدٌ أنا لمسجدي
عائدٌ إلى الصلاة والركوع والسجودْ
عائدٌ إلى الطريق خلف أحمدَ الرسول
أُطلق الخطى حزينة في إثره
عرفتُ قصَّة الطريقِ كلّها
محافل تضمُّ ألف سوط
والموتُ قادم .. يدوس فوق موت
عرفتُ قصَّة الطريق كلّها
وعائدٌ أنا برغْمها

---

(١) صناعة الحياة لمحمد أحمد الراشد صـ ٦٠ ، دار المنطلق بدبي .

كالفجر .. كالصباح .. مغدقٌ وباسمُ
والخطو كالرياح .. عاصفٌ وعارم
لا بديلَ للخلود
لا بديل للجنان
لا بديل
لا بديلَ غير ذلَّة الرُّغامْ
لا بديل غير خدعةِ السرابْ
لا بديل غير وهْدةِ الظلامْ
لا بديل للإقدام .. غير سحقة الأقدامْ
عرفت قصَّة الطريق كلّها
الموتُ أول المطاف
لكنَّ خضرة الطريق لا يصيبها الجفاف
قادمٌ .. وقادمٌ .. وقادمُ
إشراقة مضيئة تجيء في الختام
تقدَّموا .. تقدَّموا .. تقدَّموا
فبعد لحظةٍ من المسير
ينتهي الزحامْ
ينتهي الزحامْ

**الثلاثون: كَوْنُ الداعية على عقيدة أهل السنة والجماعة، وفهمه لمعنى التوكُّل:**

متى صحَّ اعتقاد الرجل وسار على درْب أهل السنة والجماعة ، علتْ همته وسمت أن يكون مُرجئًا أو صوفيًّا يُنكر الأسباب ويتواكل، وما يجر ذلك من عظائم .

والرجل من أهل السنة يعلم حقيقة التوكل وربْط الأسباب بالمسببات ، ويعلم أنه إذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب ، وأن مَن أنكر الأسباب لم يستقم

منه التوكل ، وهذا سلوك البطالين .

ويعلم الداعية أنَّ من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب ، وقطْع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها ؛ فالأسباب محلُّ حكمة الله وأمره ودينه ، والتوكُّل متعلِّق بربوبيته وقضائه وقدره ، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ، ولا يستوي ساق التوكل إلا على قدم العبودية . وينبغي للعبد أن لا يُبقي في قلبه اضطرابًا من تشويش الأسباب ولا سكونًا إليها ، بل يخلع السكون إليها من قلبه ، ويُلبسه السكون إلى مسبب الأسباب .

وعالي الهمَّة يعلمُ أن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، لقول رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وعرشه على الماء »(١) . ويعلم أن مشيئة الله شاملة وقدرته نافذة ؛ ﴿ **إنَّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كُن فيكون** ﴾ [ يس : ٨٢ ] . فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ فلا حركة ولا سكون في السموات ولا في الأرض إلا بمشيئته ، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد ، له الأمر وله الحكم في الدنيا والآخرة ؛ فيفرِّغ العبدُ قلبَه لربِّه ويعلم أن البشر لا يملكون نفعه ولا ضرَّه ، فتعلو همَّتُه لطلب مَن بيده النفع والضر ، يرجو رحمته ويخاف عذابه .

فتعرَّفْ يا ابن أمي في العقيده
يا أخا الإسلام في الأرضِ المديدهْ
وتجرَّدْ لانطلاقاتٍ بعيده
وتوقَّعْها جراحاتٍ جديده
فهْي طوبى واختبارات مجيدهْ

---

(١) رواه مسلم .

وتساءلْ .. غَنِّها اليوم قصيدهْ :
ما حياةُ المرءِ من غير عقيدهْ ؟!
ما حياة دون أهدافٍ بعيده ؟!
ما حياة دون أرواحٍ شهيده ؟!
وكفاح وصراعاتٍ عنيدهْ ؟![١]

## الحادي والثلاثون : وصايا الربَّانيِّين ونصائحهم :

«إن التواصي بالحق والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة: ميثاق إسلامي، أخذه الله ورسوله على الجيل القدوة الأول ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ؛ قال عزَّ ثناؤه : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبر** ﴾[ العصر : ١ - ٣ ] . وقال تعالى : ﴿ **ثم كان مِنَ الذين آمنوا وتواصوْا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة** ﴾[ البلد : ١٧ - ١٨ ] .

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : « بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاءِ الزَّكاة والنُّصح لكل مسلم »[٢] .

والنصيحة كلمةٌ جامعة ، وليس في الكلام كلمة مفردة تُستوفَى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة ؛ ولذلك جعلها رسول الله ﷺ الدِّينَ كلَّه ، فعن تميم الداري أن النبيَّ ﷺ قال : « الدينُ النصيحة » . قلنا : لمن ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ورسوله ، ولأئمة المسلمين وعامَّتهم »[٣] .

---

(١) من قصيدة « عرفت الطريق » للدكتور صالح آدم بيلو من كتاب « من الشعر الإسلامي الحديث » صـ ٩٤ .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) أخرجه البخاري تعليقًا ، ومسلم . وروى الشطر الأول منه البخاري في التاريخ عن ثوبان، والبزار عن ابن عمر، والدارمي وابن نصر عن ابن عمر، وأحمد ومسلم وأبو عوانة، وأبو داود، والنسائي، وابن نصر عن تميم ، وأحمد ، والنسائي ، =

فمن خلال لفظ النصيحة المتضمِّن كلمة التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته؛ تبرُز صورة الأمة المتضامنة المتضامّة ، الخيِّرة الواعية ، القيِّمة في الأرض على الحقِّ والعدل والخير .

وهي أنصع وأرفع صورة للأمة المختارة ، التي أرادها الله أن تكون قائمة على حراسة الحقِّ والخير ، متواصية بالخير والصبر في مودَّةٍ وتعاونٍ وتآخٍ ، تتَّضحُ بها كلمة التواصي .

إنَّ التواصي بالحقِّ ضرورة للنهوض بالحق ؛ لأن المعوقات كثيرة ؛ هوى النفس ، ومنطق المصلحة ، وتصوُّرات البيئة .

والتواصي تذكيرٌ وتشجيعٌ وإصلاحٌ، وإشعارٌ بالقربى في الهدف والغاية، والأخوَّة في العبء والأمانة ؛ فهو حصيلة الاتجاهات الفرديَّة كلِّها ، حيث تتفاعل معًا فتتضاعف أضعافًا كثيرة ، ويقوى أمرُها ، وتستغلظ فتستوي على سوقها ؛لتؤتي أُكلها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها .

والتواصي بالصبر ضرورة ؛ لتتضاعف المقدرة على الثبات على الحق ، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ووحدة المسار وتعاضُد الجميع، وتزوّدهم بالحبِّ والعزم والإصرار . فهو معيارُ تماسك الأمة المسلمة ، فهي أعضاء متجاوبة الحسِّ، تشعرُ شعورًا واحدًا، فيوصي بعضُها بعضًا بالصبر على العبءِ المشترك ، ويثبِّتُ بعضُها بعضًا فلا تتخاذل ، ويقوِّي بعضُها بعضًا فلا تولِّي يومَ الزحف .

وهذا غير الصبر الفردي وإن كان قائمًا عليه، فهو إيحاءٌ جَلِيٌّ بواجب المؤمن في الأمةِ المسلمة ، بألَّا يكون عنصر تخذيل وتثبيط بل عنصر تثبيت ، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ، ولا يكون مثارَ جزع بل مهبط سكينة وطمأنينة .

---

= والترمذي ، وابن نصْر ، وأبو نعيم عن أبي هريرة ، وأحمد ، والضياء ، والبخاري في التاريخ عن ابن عباس .

وكذلك التواصي بالمرحمة أمر فوق المرحمة ، لأنه إشاعة الشعور بواجب التراحُم والتعاطُف والتوادِّ في الصفوف المؤمنة؛ ليزداد البنيانُ تماسكًا؛ حيث يكون التحاضُّ على المرحمة واجبًا فرديًّا جماعيًّا في الوقت نفسه ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع[1] .

لقد مارس الجيلُ القدوة الأول النُّصحَ على أعلى المستويات وأدناها ، لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وطبَّق التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، والتواصي بالمرحمة .

وأصدق الوصايا وأنفعُها ما ورد في الكتاب العزيز من أوامر الحق ونواهيه، المنزَّل من حكيم حميد نزل به الروح الأمين على قلب نبينا: ﴿**فاستبقوا الخيرات**﴾، ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾، ﴿**وأحسنوا**﴾، ﴿**وأنفقوا في سبيل الله**﴾، ﴿**وتزودوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى**﴾، ﴿**وقاتِلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين لله**﴾، ﴿**واتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله**﴾، ﴿**فلا تخشوهم واخشوني**﴾، ﴿**وبعهد الله أوفوا**﴾.
ثم وصايا الحبيب ﷺ : « كُن في الدنيا كأنَّك غريبٌ أو عابر سبيل»، «كن ورعًا تكن أعبد الناس » .

ووصايا العلماء الربانيين تفعل في القلوب الأعاجيب ، وتشحذُ الهممَ :

«قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني. قال : أوصيك أن تكون ملكًا في الدنيا والآخرة . قال : كيف ؟ قال : ازهد في الدنيا »[2] .

وقول عثمان رضي الله عنه : «أنتم إلى إمامٍ فعَّالٍ أحوجُ منكم إلى إمامٍ قوَّال » .

وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الناس من خوف الذل في الذل».

---

(١) نقلًا عن الظلال ، الجزء السادس بتصرُّف ، وكتاب « من وصايا السلف » للشيخ سليم الهلالي .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦ / ١٢٠ .

وقول عمرو بن العاص رضي الله عنه :

إذا المرء لم يترك طعامًا يحبُّه    ولم ينهَ قلبًا غاويًا حيثُ يمَّما
قضى وطرًا منه وغادر سُبَّةً    إذا ذكرتْ أمثالُها تملأُ الفما

وقول القائل :

وأنتَ إذا أعطيتَ بطنَك سُؤْلَهُ    وفرجَك نالا مُنتهى الذمِّ أجمعا

وقول القائل ناصحا : « أنفعُ اليقين : ما عظَّم الحقّ في عينك ، وصغَّر ما دونه عندك ، وأثبتَ الرجاءَ والخوفَ في قلبك » .

وقول بندار بن الحسين الشيرازي موصيًا وناصحًا : « مَن مشىٰ في الظلمة إلى ذي النعم أجلسه على بساطِ الكرم، ومَن قطع لسانه بشفرة السكوت بُنِيَ له بيتٌ في الملكوت ، ومَن واصل أهل الجهالة أُلبِس ثوبَ البطالة ، ومن هربَ من الذنوب هُرِبَ به من النار ، ومَن رجا شيئًا طلبه » .

وقال رجل لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : أوصني يرحمك الله . فقال : « اعلم أنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنتَ إلى نصيبك من الآخرة أفقر ؛ فابدأ بنصيبك من الآخرة ، فإنه سيمرُّ بك على نصيبك من الدنيا فينتظمه ، ثم يزول معك أينما زلت » .

وقال أبو الدرداء : « اعبد الله كأنك تراه ، وعُدَّ نفسَك في الموتى » .

وقال : « اذكر الله في السَّراء يذكرك في الضرَّاء ، وإذا ذكرت الموتى فاجعل نفسك كأحدهم » .

وقال هرم بن حيان : « أوصيكم بخواتيم سورة النحل » . وقال : « أوصيكم بخواتيم سورة البقرة » .

وقال الشيخ الموفَّق ابن اللَّباد : ينبغي أن تكون سيرتُك سيرةَ الصدر الأول ، ومَن لم يكدح لم يفلح ، وإذا حدث لك فرح بالدنيا فاذكر الموت وسرعة الزوال ، واعلم أن للدين عبقةً وعرقًا ينادي على صاحبه ، ونورًا وضيئًا يُشرقُ عليه ويدلُّ عليه .

وقال عبد الله بن إدريس لداود الطائي: أوصني. فقال له: ارْضَ باليسير من الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين . قلت : زدني. قال: اجعل الدنيا كيوم صمته ثم أفطر على الموت. وقال: ليكن كاتباك محدثيك .

وقال : كفى باليقين زهدًا، وكفى بالعلم عبادة، وكفى بالعبادة شغلًا.

وقال أيضًا رحمه الله - لرجل قال له : أوصني -: « يا أخي ، إنما الليل والنهار مراحل تنزل بالناس مرحلة مرحلة ، حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تُقدِّم في كلِّ يوم مرحلةٍ زادًا لما بين يديك فافعل ؛ فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزوَّد لسفرك ، واقض ما أنت قاضٍ من أمرك ، فكأنك بالأمر قد بَغَتك !! إني لأقول هذا وما أعلم أحدًا أشدَّ تضييعًا مني لذلك . ثم قام » .

وقال لرجل آخر : عسكر الموتى ينتظرونك .

وقال الجنيد يوصي إخوانه : عليكم بحفظ الهمة ؛ فإن حفظ الهمَّة مقدمة الأشياء .

وسأل رجلٌ الجُنيد: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: توبة تحلُّ الإصرارَ، وخوفٌ يزيل الغرَّة ، ورجاءٌ مزعجٌ إلى طريق الخيرات ، ومراقبة الله في خواطر القلوب .

وقال لرجل : لا تكن عبدَ الله حقًّا وأنت لشيءٍ سواه مُسترَقًّا .

وقال أبو عبد الله السجزي لأخ له : كمال الفتوة أن لا يشغلك الخلقُ عن الله .

ولله درُّ القائل :

لا تبغينَّ جاهًا وجاهُك ساقط عند الإله وكُنْ للموتِ حَذَّارا

وقال ممشاد الدينوري موصيًا : الهمَّة مقدمة الأشياء ؛ فمن صلحت له همتُه وصدق فيها ، صلح له ما وراءها من الأعمال والأحوال .

وقال آخر موصيًا إخوانه : قيمةُ كلِّ إنسان بقدر همته ؛ فإن كانت همته الدنيا فلا قيمة له ، وإن كانت همتُه رضاء الله فلا يمكن استدراك غاية قيمته ولا الوقوف عليها .

وقال ابن الكاتب موصيًا : « الهمَّة مقدّمةٌ في الأشياء ، فمن صحح همته بالصدق أتت توابعها على الصحة والصّدق ؛ فإن الفروع تتبع الأصول ، ومَن أهمل همته أتت عليه توابعها مهملة ، والمهمل من الأفعال والأحوال لا يصلح لبساط الحق » .

وانظر إلى نصح سفيان الثوري الذي قال فيه حفص بن غياث : كنا نتعزَّى عن الدنيا بمجلس سفيان .

« قال سفيان رحمه الله : لو أن اليقين ثبت في القلب ؛ لطار فرحًا ، أو حزنًا ، أو شوقًا إلى الجنة ، أو خوفًا من النار .

وقال ابن المبارك : قال لي سفيان : إياك والشهرة ؛ فما أتيتُ أحدًا إلّا وقد نهى عن الشهرة »[(١)] .

وقال بشر بن الحارث : اكتمْ حسناتِك كما تكتم سيِّئاتك .

وقال : من أراد أن يلقَّن الحكمة ؛ فلا يعصِ الله .

وقال : لا تعملْ لتُذكَرَ ، وَرِدْ لله ما يريد .

وقال: إذا أعجبك الكلام فاصمُت، وإذا أعجبك الصمْت فتكلَّمْ ..

وقال : قلْ لمن طلب الدنيا : تهيَّأْ للذلِّ .

وسُئل ابن المبارك : مَنِ الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فمَنِ الملوك ؟ قال : الزهَّاد . قيل : فمن الغوغاء ؟ قال : خزيمة وأصحابه . يعني مِن أمراء الظلمة . قيل : فمن السَّفِلة ؟ قال : الذين يعيشون بدينهم .

وقال ابن المبارك رحمه الله : لو اتقى الرجل مائة شيء و لم يتق شيئًا

(١) السير ٧ / ٢٦٠ .

واحدًا ؛ لم يكُ من المتقين ، ولو تورَّع عن مائة شيء سوىٰ شيء واحد ؛ لم يكن وَرعًا ، ومَن كانت فيه خُلَّة من الجهل كان من الجاهلين ، أمَّا سمعتَ الله يقول لنوح عليه السلام من أجل ابنه: ﴿**إني أعظُك أن تكون من الجاهلين**﴾ [ هود : ٤٦ ] ؟!

وكتب سفيان الثوري إلى عبَّاد بن عبَّاد الخوَّاص : « عليك بالأمر الأول والتمسُّك به، وعليك بالخمول ؛ فإن هذا زمن الخمول . وإياك وحبّ الرئاسة ؛ فإن الرجل تكون الرئاسة أحبَّ إليه من الذهب والفضة . وهو باب غامض ، لا يبصره إلا العلماء السماسرة ، فتفقَّدْ نفسَك ، واعملْ بنيَّة ، واعلمْ أنه قد دنا من الناس أمْر يشتهي الرجل أن يموت.والسلام »[1] .

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز : « إن الذي بقي من العمر لا ثمن له ولا عِدْل ، فلو جمعتَ الدنيا كلها ما عدلت يومًا بقي من عمر صاحبه ، فلا تبعِ اليوم وتعدله من الدنيا بغير ثمنه ، ولا يكونَنَّ المقبور أعظمَ تعظيمًا لما في يديك منك وهو لك،فلعمري لو أن مدفونًا في قبره قيل له : هذه الدنيا – أولها إلى آخرها – تجعلها لولدك من بعدك يتنعَّمون فيها من ورائك ؛ فقد كنتَ وليس لك همٌّ غيرهم – أحبّ إليك ، أمْ يومٌ تُترك فيه تعمل لنفسك ؟ لاختار ذلك ، وما كان ليجمع مع اليوم شيئًا إلا اختار « اليوم » عليه ؛ رغبة فيه وتعظيمًا له ، بل لو اقتصر على ساعة خُيِّرها وما بين أضعاف ما وصفتُ لك وأضعافه يكون لسواه ؛ إلَّا اختار الساعة لنفسه على أضعاف ذلك يكون لغيره. بل لو اقتصر على كلمة يقولها تُكتب له وبين ما وصفتُ لك وأضعافه ؛ لَاختار الكلمة الواحدة عليه .

فانتقِد اليوم لنفْسِك ، وأبصر الساعة ، وأعظم الكلمة ، واحذر الحسرة عند نزول السَّكرة ، ولا تأمن أن تكون لهذا الكلام حُجَّة ، نفعنا الله وإياك

---

(١) من وصايا السلف ، لسليم الهلالي صـ ٢٠ – ٢٥ ، دار ابن الجوزي .

بالموعظة، ورزقنا وإياك خير العواقب. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وقال الفضيل بن عياض : لا تجعل الرجال أوصياءك ، كيف تلومهم أن يضيِّعوا وصيتك ، وأنت قد ضيَّعتها في حياتك ؟

وقال الفضيل : إنما أمس مثَل ، واليوم عمَل ، وغدًا أمَل .

وقال رحمه الله : رهبةُ العبد من الله على قدْر علمه بالله ، وزهادته في الدنيا على قدْر رغبته في الآخرة .

«وقال علي بن المديني : ودَّعتُ أحمد بن حنبل فقلت له : توصيني بشيء ؟ قال : نعم ؛ اجعلِ التقوى زادك ، وانصبِ الآخرة أمامك .

وقال رحمه الله : كلُّ شيء من الخير تهتمُّ به ، فبادِرْ به قبل أن يُحال بينك وبينه .

وقال عبد الله بن أحمد : قلتُ لأبي يومًا : أوصني يا أَبَهْ . فقال : يا بنيَّ ، انوِ الخير ، فإنك لا تزال بخير ما نويتَ الخير .

وكتب الإمام أحمد إلى سعيد بن يعقوب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أحمد بن محمد إلى سعيد بن يعقوب ، أما بعد : فإن الدنيا داء ، والسلطان داء ، والعالم طبيب ، فإذا رأيت الطبيب يجرّ الداء إلى نفسه ، فاحذرْه ، والسلام عليك »[1] .

## كلمات التثبيت وشحْذ الهمم ، قالها الربَّانيُّون لأحمد بن حنبل في المحنة :

إن كان الإمام أحمد قوَّى الله عزمه بنصيحة الصادقين في محنته فما بال غيره؟!

عن أبي جعفر الأنباري قال: « لمَّا حُمِل أحمد إلى المأمون أُخبرتُ ، فعبرتُ الفرات ، فإذا هو جالس في الخان فسلَّمتُ عليه ، فقال : يا أبا جعفر ، تعنَّيتَ.فقلت : يا هذا ، أنت اليوم رأس ، والنَّاس يقتدون بك ، فوالله لئن أجبتَ إلى خلْق القرآن ليجيبنَّ خلْقٌ ، وإن لم تُجِبْ ليمتنعَنَّ خلْق من الناس كثير،

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٢٥٨ - ٢٦٧ .

ومع هذا فإن الرجل إنْ لم يقتلك ؛ فإنك تموت ، لا بد من الموت ، فاتق الله ولا تُجبْ . فجعل أحمد يبكي ويقول : ما شاء الله . ثم قال : يا أبا جعفر ، أعِدْ . فأعدت عليه وهو يقول : ما شاء الله » اهـ[١] .

قال الإمام أحمد في سياق رحلته إلى المأمون: «صرنا إلى « الرَّحْبة » ، ورحلنا منها في جوف الليل ، فعرض لنا رجل فقال : أيُّكم أحمد بن حنبل ؟ فقيل له : هذا . فقال للجمَّال : على رسْلك .. ثم قال : « يا هذا ، ما عليك أن تُقتَل هاهنا ، وتدخل الجنة ؟ » . ثم قال : أستودعك الله . ومضى . فسألت عنه ، فقيل لي : هذا رجل من العرب من ربيعة ، يعمل الصوف في البادية ، يُقال له : جابر بن عامر ، يُذكر بخير »[٢] .

وفي « البداية والنهاية » : « أن الأعرابي قال للإمام أحمد : يا هذا ، إنك وافد الناس فلا تكن شؤْمًا عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه ، فيجيبوا فتحمل أوزارهم إلى يوم القيامة ، وإن كنتَ تحبُّ الله ، فاصبر على ما أنت فيه ؛ فإنه ما بينك وبين الجنة إلّا أن تُقتل . قال الإمام أحمد : وكان كلامه ممَّا قوَّى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع عن ذلك الذي يدعونني إليه »[٣] .

وفي رواية أن الإمام أحمد قال : « ما سمعتُ كلمة منذ وقعتُ في هذا الأمر أقوىٰ من كلمة أعرابيٍّ كلَّمني بها في «رحبة طوق»[٤]؛ قال: يا أحمد، إنْ يقتلك الحق متَّ شهيدًا ، وإن عشتَ عشتَ حميدًا .. فقوَّىٰ قلبي »[٥] .

---

(١) السير ١١ / ٢٣٨ .

(٢) السير ١١ / ٢٤١ .

(٣) البداية والنهاية (١/٣٣٢)، ووسائل الثبات على دين الله لمحمد صالح المنجد صـ ٣٢-٣٣ ، دار الوطن .

(٤) اسم بلدة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات .

(٥) السير ١١ / ٢٤١ .

وقال الإمام أحمد عن مرافقة الشابِّ محمد بن نُوح الذي صمد معه في الفتنة: ما رأيت أحدًا - على حَدَاثة سنِّه، وقدْر علمه- أقومَ بأمْر الله من محمد بن نوح ؛ إني لأرجو أن يكون قد خُتِم له بخير ؛ قال لي ذات يوم : « يا أبا عبد الله ، الله ، الله . إنك لستَ مثلي ؛ أنت رجل يُقتدىٰ بك ، قد مدَّ الخلْقُ أعناقَهم إليك ؛ لِمَا يكون منك . فاتق الله ، واثبتْ لأمْر الله.فمات وصلَّيت عليه ودفنته »[١] .

وحتى أهل السجن الذين كان يُصلِّي بهم الإمام أحمد وهو مقيَّد ؛ قد ساهموا في تثبيته . فقد قال الإمام أحمد مرَّة في الحبْس : « لستُ أبالي بالحبْس - ما هو ومنزلي إلا واحد - ولا قتلًا بالسيف ، وإنما أخاف فتنة السَّوْط . فسمعه بعض أهل الحبس فقال : لا عليك يا أبا عبد الله ، فما هو إلا سوطان ، ثم لا تدري أين يقع الباقي .. فكأنه سُرِّي عنه »[٢] .

وهذا ذو النون المصري يقول: لا يتفكَّر القلب لغير الله إلا إذا كان عليه عقوبة .

«وقال يوسف بن الحسين:قُلتُ لذي النون -لمَّا أردتُ توديعه-: أوصني رضي الله عنك ، بوصية أحفظها عنك . فقال : لا تكنْ خصْمًا لنفْسك على ربك،مستزيده في رزقك وجاهك ، ولكن خصمًا لربك على نفسك »[٣] .

وكانت أمُّ سفيان الثوري تقول: «يا بُنَّي لا تتعلَّم العلم إلا إنْ نويتَ العملَ به ، وإلَّا فهو وَبَالٌ عليك يوم القيامة » .

ولله درُّ ذات النطاقين وهي توصي ابنها عبد الله بن الزبير ، فتقول له : «الله الله يا بُني، إن كنتَ تعلم أنك على حقٍّ تدعو إليه فامض عليه، ولا تُمكِّنْ

(١) السير ١١ / ٢٤٢ .
(٢) السير ١١ / ٢٤٠ .
(٣) الحلية ٩ / ٣٨٢ .

من رقبتك غلمانَ بني أُمَيَّة فيلعبوا بك ، وإن كنتَ أردت الدنيا فبئس العبدُ أنت ، أهلكت نَفْسك ومَن معك ، وإن قلتَ : « إني كنتُ على حقّ ، فلمَّا وهَن أصحابي ضعفتْ نيَّتي » ؛ فليس هذا فعْل الأحرار ولا من فيه خير ، كم خلودُك في الدنيا ؟! القتل أحسَنُ ما يقع بك يا ابن الزبير ، والله لَضَرْبةٌ بالسيف في عِزٍّ أحبُّ إليَّ من ضرْبٍ بالسَّوْط في ذلٍّ » . فقال : يا أُمَّاه ، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثِّلوا بي ويصلبوني . قالت : « يا بُنيَّ، إنَّ الشَّاةَ لا يضرُّها السلخُ بعد الذَّبْح ، فامض على بصيرتك ، واستعن بالله » .

وهذه رابعة بنت إسماعيل الشامية زوجة أحمد بن أبي الحواري ؛ تقول له : لستُ أنا وأنت ممَّن ينغَّص عليه العيْش بذكْر الآخرة .

وعَمْرة زوجة أبي محمد حبيب العجمي تحثُّه على القيام ، فتقول له : قمْ يا سيدي ؛ فهذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، وبين يدينا طريق طويل وزاد قليل ، وهذه قوافل الصالحين قد سارت قُدَّامنا ونحن قد بقينا .

وهذه الزوجة الصالحة « مَوْضي بنت أبي وهطان » زوجة الأمير محمد ابن سعود رحمه الله، والتي كان لنصيحتها أكبر الأثر في نصرة أعظم حركة تجديدية شهدتها الأمة ، منذ أوائل القرن الثاني عشر الهجري حتى يومنا هذا ، فإنها هي التي حثَّت زوجها على مناصرة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله، وشدِّ أزره، وإشهار سيفه من غمْده؛ نصرةً لدعوة التوحيد [١].

ومن وصايا الجُنيد رحمه الله : « متى أردت أن تشرُف بالعلم وتُنسب إليه وتكون من أهله قبل أن تُعطي العلمَ ما له عليك ؛ احتجَب عنك نورُه ، وبقي عليه وسْمه وظهوره ، ذلك العلم عليك لا لك »[٢] .

ومن وصايا السَّري رحمه الله : « خمس مَنْ كُنَّ فيه فهو شجاع بطل :

---

(١) علو الهمة صـ ٣٥٨ .

(٢) الحلية ١٠ / ٢٦٩ .

استقامة على أمْر الله ليس فيها رَوَغَان، واجتهاد ليس معه سهْوٌ، وتيقُّظ ليس معه غفلة، ومراقبة الله في السرِّ والجهْر ليس معه رياء، ومراقبة الموت بالتأهُّب»[(١)] .

وكتب الأوزاعي إلى أخ له : « أما بعد ؛ فإنه قد أُحيط بك من كل جانب ، واعلمْ أنه يُسارُ بك في كل يوم وليلة ، فاحذرِ الله والمقامَ بين يديه ، وأن يكون آخر عهدك به . والسلام » .

ودخل سابق البربريّ على عمر بن عبد العزيز فقال له : عِظْني يا سابق وأوجزْ . قال : نعم يا أمير المؤمنين وأبلُغُ إن شاء الله . قال عمر : هات . فأنشده سابق :

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ من التُّقىٰ ... ووافيتَ بعدَ الموتِ من قدْ تزوَّدا
ندِمتَ علىٰ أن لا تكونَ شركْتَهُ ... وأرصدت قبل الموتِ ما كان أرصدا

فبكى عمر حتى سقط مغشيًّا عليه [(٢)] .

وأوصى أبو سليمان الداراني ابن أبي الحواري فقال : « خالفْ نفسَك في كل مراداتها فإنها الأمّارة بالسُّوء ، وإياك أن تحقر إخوانك المسلمين ، واجعل طاعة الله دثارًا ، والخوفَ منه شعارًا ، والإخلاص له زادًا ، والصدق حسنة ، واقبل مني هذه الكلمة الواحدة ، ولا تفارقْها ، ولا تغفل عنها : مَن استحيا مِن الله في كلِّ أوقاته وأحواله وأفعاله، بلَّغه الله إلى مقام الأولياء من عباده»[(٣)] .

ونختم بقول القائل ونصْحه الذي يُعلي الهِمَمَ : « لا تقنع بالشَّرف التالد ؛ فذاك الشرف للوالد ، واضممْ إلى التالد طريفًا ، حتى تكون بهما شريفًا ، ولا تُدلِ لشرف أبيك ، ما لم تدُلَّ عليه بشرفٍ فيك » .

---

(١) الحلية ١٠ / ١١٧ .
(٢) الحلية ٥ / ٣١٨ .
(٣) البداية والنهاية ، نقلًا عن أقوال مأثورة وكلمات جميلةٍ ، للدكتور محمد لطفي الصبَّاغ ، صـ ٨٢ - المكتب الإسلامي .

**الثاني والثلاثون : ذكْرُ الجنَّة والنار دَوَامًا وجعْلُهما نصْب العيْن :**

وهذا السبب من أهم الأسباب لعلوِّ الهمة .. فالحياة الباقية هي الحيوان ، وهي الربْح والخُسْر .. هناك حيث يبلغ الإنسان أقصىٰ الكمال المقدَّر له ، أو يرتكس فتُهدَر آدميَّته ، وينتهي إلى أن يكون حَجَرًا في القيمة ، ودون الحجر في الراحة ، ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدَّمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنتُ ترابًا** ﴾ [ النبأ : ٤٠ ] .

والجنة بلاد الأفراح ، وسلوة الأحزان ، ومحطُّ رحال المؤمنين ، والنفْس مفطورة على عدم التضحية والعمل والثبات إلا بمقابل يهوِّن عليها الصِّعاب ويذلِّل لها ما في الطريق من عقبات ومشاق .

فالذي يعلم الأجر تهون عليه مشقَّة العمل ، وهو يسير ويعلم بأنه إذا لم يثبت فستفوته جنَّة عرضها السماوات والأرض ، ثم إن النفْس تحتاج إلى ما يرفعها من الطين الأرضي ويجذبها إلى العالم العلوي .

وكان النبي ﷺ يستخدم ذكْر الجنة في تثبيت أصحابه ، ففي الحديث الحسن الصحيح: مرَّ رسول الله ﷺ بياسر وعمَّار وأمّ عمّار وهم يُؤْذَوْن في الله تعالى ، فقال لهم : « صبرًا آل ياسر ؛ فإن موعدكم الجنة »[1][2] .

**وذكْرُ الجنة والنار وجعْلُهما نُصْب العين يدفع إلى علوِّ الهمم :**

أما تنظر قول رسول الله ﷺ : « ما رأيتُ مثل النار نام هارِبُها ، ولا مِثْلَ الجنة نام طالبها !! »[3] .

---

(١) وسائل الثبات على دين الله ، للمنجد صـ ٣٥ - ٣٦ .

(٢) حسن صحيح : رواه الحاكم ٣ / ٣٨٣ ، وهو حديث حسن صحيح ، انظر تخريجه في فقه السيرة ، تحقيق : المحدِّث الألباني صـ ١٠٣ .

(٣) حسن : أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ، والطبراني في الأوسط عن أنس ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم ٩٥٣ .

وقد مرّ بك علوّ الهمة في الشوق إلى الجنة ، وكيف أن ذكْر الجنة جعَل الرجال يأتون بالأعاجيب : أنس بن النضر ، وجعفر الطيَّار ، وحرام بن ملحان ، وعُمير بن الحمام ، وعبد الله بن رواحة .. وإذا تذكَّر الإنسان تفاوُت الدرجات في الجنَّة وعِظَمه وأيقن بهذا؛ تعلو همته لنيْل أعلى الدرجات والقرب من رسول الله ﷺ .

قال ﷺ : « إنَّ أهل الجنة لَيَتراءون أهلَ الغرف في الجنة كما تراءون الكواكب في السماء »[1] .

وقال ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدُّرِّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ؛ لتفاضُل ما بينهم »[2] .

وقال ﷺ : « إن أهل الدرجات العُلى يراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما »[3] ، فحوْل الجنَّة يدندن مَنْ سمتْ به همَّته .

وذكر النار والخوف منها شحَذ الهمم ونَصَب الأبدان وأذبل الأرواح ؛ خوفًا منها :

ومرّ بنا خوْف الربيع بن خثيم ، وطاووس ، وقبلهما شداد بن أوس ، وبعدهما محمد بن المنكدر ، وعلي بن الفضيل وسفيان وعبد الله بن المبارك ، والفضيل،ومنصور بن المعتمر، وكيف أن خوْف النار حال بينهم وبين الراحة، فسهروا الدياجي وتهجَّدوا لله في ظلماتها خوفًا من نارها .

---

(١) رواه أحمد والشيخان عن سهل بن سعد .
(٢) رواه أحمد والشيخان عن أبي سعيد ، والترمذي عن أبي هريرة .
(٣) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة ، وابن عساكر عن ابن عمرو وعن أبي هريرة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٠٣٠ .

فرحم الله أقوامًا صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقة بالملأ الأعلى ، إذا مروا بآية فيها ذكْر الجنة فكأنهم فيها منعَّمين ، وإذا مرُّوا بآية فيها ذكر النار فكأنَّ زفير النار وشهيقها في آصال آذانهم .

**الثالث والثلاثون وهو الأخير والأجَلُّ والأعظمُ والخطير الذي ليس له نظير : جعْلُ الهمِّ همًّا واحدًا وجعْله في الله تعالى :**

مَن جعَل الهمَّ همًّا واحدًا وجعله في الله، «لا يزال الله يرقِّيه طبقًا بعد طبق ومنزلًا بعد منزل ، إلى أن يوصله إليه ، ويُمكِّن له بين يديه .. والسعيد كل السعيد ، والموفَّق كلّ الموفَّق : مَن لم يلتفت عن ربّه تبارك وتعالى يمينًا ولا شمالًا ، ولا اتَّخذ سواه ربًّا ولا وكيلًا ، ولا حبيبًا ولا مدبرًا ، ولا حكمًا ولا ناصرًا ولا رازقًا .

فإن استمرَّ على حاله واقفًا بباب مولاه لا يلتفت عنه يمينًا ولا شمالًا ، ولا يجيب غير مَن يدعوه إليه - رُجيَ له أن يستغرق قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحقّ ، فيبقى قلبه سابحًا في بحْرٍ من أنوار آثار الجلال ، فتنبع الأنوار من باطنه ، حتى يجد الملكوت الأعلى كأنَّه في باطنه وقلبه ، ويجد قلبه عاليًا على ذلك كله ، صاعدًا إلى مَن ليس فوقه شيء ، ثم يرقيه الله سبحانه ، فيُشْهِدُه أنوار الإكرام بعدما شهد أنوار الجلال ، فيستغرق في نور من أنوار أشعَّة الجمال، وفي هذا المشهد يذوق المحبَّة الخاصَّة المُلهبة للأرواح والقلوب ، فيبقىٰ القلب مأسورًا في يد حبيبه ووليِّه ، ممتَحنًا بحبِّه .

فيا له من قلب ممتحن مغمور ، مستغرق بما ظهر له من أشعة أنوار الجمال الأحَدي ، والناس مفتونون ممتحنون ، بما يفنىٰ من المال والصُّور والرياسة ، معذَّبون بذلك قبل حصوله ، وحال حصوله ، وبعد حصوله ، وأعلاهم مرتبة مَن يكون مفتونًا بالحُور العين ، أو عاملًا على تمتُّعه في الجنة بالأكل والشرب واللباس والنكاح ، وهذا المحبُّ قد ترقَّى في درجات المحبَّة على أهل المقامات ، ينظرون إليه في الجنَّة كما ينظرون إلى الكوكب الدُّري الغابر في الأفق ؛ لعلوِّ

درجته وقرب منزلته من حبيبه ومعيَّته معه ، فإن المرء مع من أحبَّ ، ولكلِّ عمل جزاء، وجزاء المحبَّة: المحبَّةُ والوصول والاصطناع والقرب، فهذا هو الذي يصلح ، وكفى بذلك شرفًا وفخرًا في عاجل الدنيا ، فما ظنُّك بمقاماتهم العالية عند مليكٍ مقتدر »(١) .

ولله درُّ ابن القيم حيث يقول : « إن الله سبحانه أبىٰ أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه ، وهمَّته متعلّقة بغيره ، وإنما يُودع ذخائره في قلب يرىٰ الفقر غنىً مع الله ، والغنى فقرًا دون الله، والعزَّ ذلًّا دونه، والذّل عزًّا معه، والنعيم عذابًا دونه ، والعذاب نعيمًا معه ، فلا يرىٰ الحياة إلا به ومعه ، والموت والألم ، والهمَّ والغم والحزن ، إذا لم يكن معه ؛ فهذا له جنتان : جنة في الدنيا معجَّلة ، وجنة يوم القيامة .

ولله ما أحلاه ! عكوف القلب على الله عز وجل وحده كعكوف البدن في المسجد لا يفارقه !! وإن كانت الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة ، فكيف تدخل محبة الله عز وجل قلبًا مُلِئ بالصُّور والأغيار ؟!

أردناكم صِرْفًا فلمَّا مُزِجتمُ    بعُدْتم بمقدارِ التفاتكُمُ عنَّا
وقلنا لكم: لا تُسكِنوا القلبَ غيرَنا    فأسكنتُمُ الأغيارَ ما أنتمُ منَّا

ومَن لم يعكُف قلبُه على الله وحده ؛ عكف على التماثيل المتنوِّعة ، كما قال إمامُ الحنفاء لقومه : ﴿ **ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** ﴾[ الأنبياء : ٥٢ ] ؛ فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف ، فكان حظُّ قومه العكوف على التماثيل ، وكان حظّه العكوف على الربّ الجليل »(٢) .

« فيا حسرةَ المحِبِّ الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بَخسٍ ، وشهوة عاجلة، ذهبت لذَّتها، وبقيت تَبِعتها، وانقضت منفعتها، وبقيت مضرَّتها،

(١) مدارج السالكين ٣ / ٣٨١ ، ٣٨٢ بتصرُّف .
(٢) الفوائد صـ ٢٥٥ - ٢٥٦ بتصرف .

فذهبت الشهوة ، وبقيت الشقوة ، وزالت النشوة ، وبقيت الحسْرة !!

فواحسرتاه لصبٍّ جُمع له بين الحسرتين: حسرة فوت المحبوب الأعلى والنعيم المقيم ، وحسرة ما يقاسيه من النصَب في العذاب الأليم !! فهناك يعلم المخدوع أيّ بضاعةٍ أضاع ، وأن من كان مالِك رِقِّه وقلبه لم يكن يصلح أن يكون له من جملة الخدم والأتباع .

فأيُّ مصيبة أعظم من مصيبة مَلِكٍ أُنزل عن سرير ملْكه، وجعِلَ لِمَن لا يصلح أن يكون مملوكَه أسيرًا ، وجُعِلَ تحت أوامره ونواهيه مقهورًا ؟! فلو رأيتَ قلبه وهو في يد محبوبه ، لرأيته :

كعصفورةٍ في كفِّ طفل يسومها حياضَ الرَّدىٰ والطفلُ يلهُو ويلعبُ

ولو شاهدتَ حالَهُ وعيْشَهُ ؛ لقلتَ :

وما في الأرض أشقى من مُحِبٍّ وإنْ وجد الهوى حُلوَ المذاقِ
تراهُ باكيًا في كلِّ حينٍ مخافة فرْقةٍ أو لاشتياقِ
فيبكي إن نأوْا شوقًا إليهمْ ويبكي إن دَنَوْا حذَرَ الفِراقِ

فهل يليق بالعاقل أن يبيع هذا المَلِك المطاعَ لمن يسومه سوء العذاب، ويُوقع بينه وبين وليِّه ومولاه الحقِّ الذي لا غناء له عنه ولا بد له منه- أعظمَ الحجاب؟! فالمحبُّ بمَن أحبَّه قتيل، وهو له عبد خاضع ذليل؛ إنْ دعاه لبَّاه، وإنْ قيل له: ما تتمنَّى؟ فهو غاية ما يتمنَّاه، لا يأنس ولا يسكن إلى سواه، فحقيقٌ به أن لا يُمَلِّك رِقَّه إلَّا لأجَلِّ حبيب،وأن لا يبيع نصيبه منه بأخسِّ نصيب». اهـ[1].

فواحسرتاه على بصيرة شاهدت هاتيْن الحياتيْن على ما هما عليه ، وعلى همَّة تُؤْثِر الأدنى على الأعلى ، وما ذاك إلا بتوفيق مَن أزِمَّة الأمور بيديه ، ومنه ابتداء كلِّ شيء وانتهاؤه إليه ؛ أقْعَدَ نفوسَ مَن غلبتْ عليهم الشقاوة عن السفر إلى ربهم وهذه الدار وأطيب الجوار ، وجَذَب قلوب من سَبَقتْ لهم منه الحُسنىٰ ، فأقامهم في الطريق ، وجعَل همَّهم واحدًا وجعَله فيه ، وسهَّل عليهم

---

(١) من إغاثة اللهفان .

ركوب الأخطار. فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلّفين، وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين ، وعُقدت الغَبَرة وثار العَجَاج ، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون، وسينجلي عن قريب، فيفوز العاملون ويخسر المبطلون.

**أخي** ، الهمَّة العَليَّة لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء :

**١** - تعرُّفٌ لصفةٍ من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبَّة وإرادة .

**٢** - وملاحظة لمنَّة تزداد بملاحظتها شكرًا وطاعة .

**٣** - وتذكُّرٌ لذنبٍ تزداد بتذكُّره توبة وخشية .

فإذا تعلَّقت الهمَّة بسوىٰ هذه الثلاثة؛ جالت في أودية الوساوس والخطرات ، فاجعلِ القلب منك جَوَّالًا وسابحًا في بُحور الأسماء والصفات .

فيا صاحبي قِفْ بي مع الحقِّ وقفةً أموتُ بها وجْدًا وأحيا بها وجْدا
وقلْ لملوك الأرض تجهدُ جهْدَها فذا الملْكُ مُلْكٌ لا يُباع ولا يُهْدىٰ

يا هذا ، عندك بضائع نفيسة .. دموع ودماء ، أنفاس وحركات ، وكلمات ونظرات ، فلا تبذلها فيما لا قدْر له .

أيصلح أن تبكي لفقْد ما لا يبقى ؟ أو تتنفس أسَفًا علىٰ ما يفنى ؟ أو تبذل مهْجةً لصورةٍ عمَّا قليل تمحىٰ ؟

لا وألف لا ... بل وجِيبُ القلب وخفَقانه لمن له نُعوت الجمال والجلال والكمال .

قومٌ تخلَّلهُـمْ زهْوٌ بسيِّدهـمْ والعبدُ يزهو على مقدار مولاهُ
تاهُـوا بـهِ عمَّـنْ سواهُ لـهُ يا حسْنَ رؤيتهم في حُسْن ما تاهوا

* * *